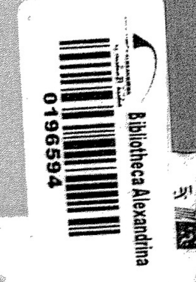
صفحات من تاريخ الاستعمار

الدكتور سليمان حزين

كتابات إستراتيجية



مختارات الإذاعة

صفحات من تاريخ الاستعمار

الدكتور سليمان حزين



مقدمة عن الاستعمار

الاستعمار ظاهرة من أهم الظاهرات فى تاريخ الانسان على الأرض • وعلى الرغم من حداثة هذه الظاهرة بالنسبة لتاريخ الانسانية الطويل ،فان أثرها امتد فى القرون الأخيرة ليشمل أكثر من نصف سكان العالم • لذلك فانى عندما دعيت لأحدثكم فى هذه السلسلة عن تاريخ الاستعمار ، ولأستعرض معكم بعض صفحاته قدرت تماما أن هذه الدراسة سيتسع بنا مداها لنطوف فى مختلف ارجاء العالم لأن الاستعمار قد انتشر انتشارا واسعا حتى أن بعض الامبراطوريات الحديثة أصبحت توصف بأنها لاتغيب عنها الشمس • فضلا عن أن الاستعمار لم يتسع ليشمل مختلف المناطق فقط ، وانما انتشر ظله ليطغى على مختلف الشعوب ، كما أن أنواعه تعددت على مر الزمن ، وأصبح منه الاستعمار الذى يشمل كل شىء ، من الأرض ، إلى حياة السكان الاقتصادية والثقافية بل والروحية فى بعض الاحيان • لذلك كله فاننا عندما نستعرض صفحات الاستعمار فى هذه الاحاديث ، فاننا سنجد أنفسنا مضطرين الى أن نحلق فى آفاق بعيدة المدى والى أن نعالج هذا الاستعمار من نواح قد تبدو قليلة الخطر أول الأمر ، ولكنها مع ذلك لاتلبث خطورتها أن تتضح لنا لأنها نواح تتصل بحياة الشعوب التى طغى عليها الاستعمار أشد الاتصال •

وقد يكون لاستعراضنا لهذه الصفحات من تاريخ الاستعمار أهمية خاصة بالنسبة الينا ، نحن سكان هذا القسم من العالم فى أفريقية وآسيا ، ذلك أن الاستعمار قد كوانا بناره وكاد ان يصيب حياتنا فى الصميم لولا فضلة من الايمان بتاريخنا المجيد ، وبرسالة شعوبنا فى الحياة ودورها المجيد فى

التاريخ . واذا كنا فى مصر وفيما جاورها من أراضى أفريقية وآسيا قـــد نجحنا فى مقاومة الاستعمار وفى مغالبته حتى غلبناه آخر الأمر ، فان هذا الكفاح قد كلفنا الكثير من الجهود ، بل أنه كاد أن يصرفنا فى بعض فترات تاريخنا الحديث عن مهمة اعادة بناء الوطن . بل اننا اذ نستعرض جهودنا القومية الحاضرة ، فاننا لا نلبث أن ندرك أننا آذا كنا قد نجحنا فى مغالبـة الاستعمار ومكافحته ، فان رواية الاستعمار لاتزال متصلة من حولنا لاسيما فى بعض أراضى أفريقية المجاورة والقريبة من وادى النيل . ويخطىء منامن يعتقد أن الاستعمار اذا كان قد بدأ يخمد فى كفاحه معنا ، فانه سيسكت أو يدعنا نتابع جهودنا دون أن يحاول أن يعرقل هذه الجهود بكل مالديه من وسائل ، ذلك أن الصفة الاساسية للاستعمار فى العهد الحـــديث انما هى أنه أصبح يمثل وحدة فى تاريخ الانسانية المعاصر . فالاستعمار أصبح فى العهد الحديث كلا لا يتجزأ . والأمم التى اشتركت فى جريمته الـــكبرى قد تشابكت بينها المصالح رغم مايبدو بينها من خلافات سياسية مظهرية ، أو من حروب ومشاحنات حدثت من وقت لآخر . فالاستعمار الاوربى قد بدأ من تلك القارة الصغيرة ، وأصبح هدفه الموحد هو السيطرة العالميـــة والطغيان على سائر الشعوب فى القارات الأخرى . وهو بهذه الصفة أصبح له هدف أعلى ، هو فرض السيطرة الاوربية على العالم كله . والذى ينعـــم النظر فى تاريخ الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا وغيرها فى العهـــد الحديث ، لا يلبث أن يلمس أنه على الرغم مما حدث بينها من مشاحنـــات عنيفة تمثلت فى الحروب الاوربية المتعاقبة ، فان أغراضها كلها قد تلاقت عند هدف واحد هو توسيع رقعة الاستعمار والمحافظة على مصـــالح الدول الأوربية عن طريق المساومات التى عرف المستعمرون كيف يتقنون فنونها وكيف يحققون بها مصالحهم المشتركة . والشىء الطريف أن كل حرب من الحروب التى عرفتها أوربا فى القرون الثلاثة الاخيرة ، فيما عدا الحـــرب العالمية الثانية ، قد انتهت بتوسيع رقعة الاستعمار . وعلى الرغـــم من أن بعض تلك الحروب قـــد أدت الى انكماش سيطرة واحـــدة أو أكثر من دول

أوربا ، فان الدول الغالبة كانت دائما تنجح فى أن ترث الدول الاوربية المغلوبة فى مستعمراتها • وكثير من مؤتمرات الصلح المختلفة التى عرفها أوربا بعد حروبها العديدة انما كانت تدور مناقشاتها ومداولاتها الطويلة حول اقتسام الغنائم واعادة توزيع المستعمرات • واذا كانت هذه الحرب العالمية الثانية قد انتهت الى غير ما انتهت اليه الحروب السابقة ، فضاقت بعدها رقعةالاستعمار ، فانما مرجع ذلك الى أن الشعوبالمغلوبة خارج أوربا كانت قد بلغت حدا من النهضة مكن لها من أن تطالب بحقوقها الطبيعية فى الاستقلال مطالبة قويةفعالة ، لم تملك معها أوربا الا أن تسلم بالأمر الواقع والا أن ترضى من الغنيمة بالاياب كما يقول مثلنا العربى المعروف •

الاستعمار اذا وحدة « لا تتجزأ » كان أمره كذلك عندما بدأت أوربا تتوسع وتهدف الى السيطرة العالمية ، فتشاحنت الدولالأوربية فيما بينها فى داخل قارتها الصغيرة ، ولكنها وحدت جهودها كما وحدت هدفها وغايتها عندما عاملت الشعوب المستضعفة خارج تلك القارة • وكذلك كان كفاح الاستعمار وحدة لاتتجزأ ، فالشعوب المغلوبة استمرت فترة طويلة شعوبا مفككة يواجه كل منها العدو الأكبر المشترك على انفراد • ولكن تلك الشعوب المغلوبة لم تلبث أن وحدت اتجاهها واخذ بعضها يساند البعض الآخر ، كما أن ظروف الكفاح وميادينه ومواقيته أخذت كلها تتقارب وتتحد ، حتى جاءت الحرب العالمية الثانية فكانت بمثابة طبول الجهاد ونواقيسه ، دقت كلها دفعة واحدة ، فهبت شعوب العالم المغلوبة فى آسيا وأفريقية ، وقامت للجهاد دفعة واحدة ، وكتب لها النصر فى الجولة الأولى من جولات الكفاح الموحد ضد الاستعمار •

هذه صورة عامة أردت أن أعرضها عليكم فى حديثى الأول لندرك بها وحدة هذه الظاهرة الكبرى فى تاريخ الانسانية ألا وهى الاستعمار • وحدتها عندما انتشرت وطغى شرها فشمل العالم ، ووحدة الكفاح ضدها عندما بدأت الشعوب المغلوبة تدرك حاجتها الى أن توحد جهودها وتقوم قومة

واحـــدة لترد الاستعمار على أعقـــابه • ولـــكن قصـــة الاستعمار قصة طويلة ، سأحاول معكم أن نتابع بعض احداثها خلال هـذه الاحاديث ، لعل فى ذلك ما يعيننا على ان نتفهم تاريخنا القومى من جهـــة ، وعلى أن نشحذ جهودنا فى كفاحنا الأكبر ضد الاستعمار من جهة أخرى •

وحدة الاستعمار وكفاحه

في مطلع هذه السلسلة ذكرت لكم أن الاستعمار لا يمكن أن نتفهمه كظاهرة سياسية عالمية ، الا اذا نظرنا اليه في ضوء حقيقتين ساطعتين : أولاهما ان الاستعمار يمثل وحدة متماسكة في نشأته وسياسته العامة ، فالدول الاستعمارية تسير على سياسة متكاملة الاجزاء متشابكة الحلقات ، والسبب في ذلك أن مصالح الاستعمار في مختلف جهات الأرض واحدة ، ولا بد للدول الاستعمارية من أن توحد سياستها وجهودها ، اذا ما أرادت أن توسع رقعة الاستعمار ، أو أن تحتفظ برقعته الحالية على الاقل ، فسكان العالم منقسمون فريقين : فريق حاكم مسيطر وفريق محكوم مسخر ، وتقوم سياسة الفريق الأول على التساند وتشابك المصالح ليضمن لنفسه السيطرة الدائمة على الفريق الثاني ، وعلى شعوبه وأراضيه .

أما الحقيقة الثانية فهي أن الكفاح ضد الاستعمار لابد أيضا أن يمثل وحدة متشابكة الحلقات ، ولئن كانت الدول المسيطرة قد وجدت من مصلحتها أن تتحد وأن تتعاون من أجل تحقيق أطماعها ، فان حاجة الشعوب المغلوبة أقوى وأظهر لأن تتعاون فيما بينها ، وتسير في اتجاه موحد على طريق الكفاح ضد الاستعمار ، فمكافحة الاستعمار لا يمكن أن تبلغ غايتها الا اذا اتخذت صورة حركة عالمية شاملة تشارك فيها الشعوب المغلوبة في كل جهة من جهات الأرض ، وتعمل وفقا لسياسة منظمة المواقيت ، تتزعمها مجموعة من الأمم التي نجحت في ازاحة عبء الاستعمار عن كواهلها ، وبدأت تذوق طعم الحرية وتتشبث بها ، ويسير في ركب

هذه السياسة العامة للمكافحة ، سائر شعوب العالم المغلوبة على أمرها فى الوقت الحاضر ٠

على أن هناك حقيقة ثالثة ينبغى ألا نغفل عنها ، ولكننا لا نستطيع أن نتبينها الا اذا درسنا تاريخ الاستعمار وتطور أفكاره وأساليبه ، وهـذه الحقيقة هى أن ظاهرة الاستعمار كما نعرفها فى العهد الحديث هى ظاهرة جديدة ترتب عليها ان أصبح الاستعمار اسـتعبادا كاملا ، واسـتغلالا شاملا ، تسخر فيه موارد المستعمرة وجهود سكانها لصالح المستعمرين ، وتضيع به معالم الحياة الاجتمـاعية والثقافيـة بل والانسانيـة لسـكان المستعمرات ، وهذا كله يعتبر جديدا على الانسانية ، ويختلف تماما عما كانت عليه أساليب السيطرة فى العصور التاريخية المتعاقبة ٠

ولنحاول أن نتبين هذه الحقيقة فى ضوء صلات الشعوب بعضها ببعض فى العصور القديمة ، ولنبدأ بمصر الفرعونية مثلا ، فقـد بدأت الحضارة المستقرة فى مطلع العهـد الفرعونى ، وتكونت فى مصر حـكومة يمتـد سلطانهـا فى مختلف ربوع وادى النيـل الأدنى ، وكان ذلك قبل مولد المسيح باثنين وثلاثين قرنا ، عنـدما وحد الملك مينا وجهى مصر البحرى والقبلى ، وظهرت فى البـلاد حكومة لم تلبث أن اشتد سـاعدها وزادت قوتها ، وازدهرت حياة وادى النيل فى ظلها ٠

وفى الوقت نفسه لم تكن البـلاد المجـاورة لمصر قد أصابها شىء من النهضة يشبه أو يناظر نهضة الاسرات الأولى المصرية ، ولو أن مثل هذه الظاهرة كانت فى العهد الحديث ، أى لو اننا تصورنا قيام أمة مزدهرة الحضارة والحياة قوية الحـكومة فى منطقة أو أقليم ليست به حكومات ولا أمم قوية أخرى ٠٠٠ لو حدث هذا فى العهد الحديث لخرجت حكومة البلد القوى وحاولت أن تسيطر على العالم المجاور من حولها ، ولـكن مصر لم تفعل ذلك ، وانما استمرت الدولة المصرية القديمة خـلال ثمانية قرون

دولة قوية بمواردها ورجالها وتنظيمها ، ولكنها لم تسع الى السيطرة على ما حولها من أقطار ، ولم تقم بينها وبين العالم المجاور مشاحنات ولا حروب ، ولم تنفق مصر فى الدولة القديمة أى جزء من جهودها فى سبيل السيطرة الخارجية ، ولم تبدد شيئا من ثروتها ولا من طاقتها البشرية فى شن الحروب والعدوان ، وبذلك كله ضربت مصر القديمة المثل الأول للانسانية عندما استطاعت أن تضبط نفسها رغم قوتها ، وأن تكون موطنا للمدنية الراقية ، دون أن تصبح مبعثا للشر أو للعدوان على ما حولها من أقطار .

قد ينظر الناس الآن الى مصر القديمة ، فيعجبون كيف أنفق المصريون القدماء الجهد والمال والوقت فى سبيل انشاء بناء ضخم كالهرم الأعظم ، استنفد طاقة الأمة الزائدة خلال عشرين عاما ، ولكننا لا نلبث أن ندرك ما انطوت عليه هذه العملية الكبيرة من خير ، حين نعلم أن المصريين القدماء فضلوا أن يبذلوا طاقتهم الزائدة فى بناء هرم عظيم ، على أن يوجهوا تلك الطاقة وجهة الشر والعدوان والطغيان .

وحتى بعد أن تقدم الزمن بمصر وجاءت الدولة الوسطى ثم الدولة الفرعونية الحديثة ، واضطرت مصر الى أن تخرج عن حدودها نحو الشرق ، لم تخرج مصر من واديها الخصيب الا بعد أن كانت بعض العناصر من الرعاة القدماء قد هاجموها وقطعوا عليها طمأنينتها واستقرارها الزراعى ، فخرجت جيوش الدول الحديثة لا لتغزو ولا لتستعمر ولكن لتؤمن الحدود الشرقية ، فلم تكن هناك سياسة استعمارية بالمعنى المفهوم للكلمة ، ولم يسع المصريون فى الدولة الحديثة ليستعمروا الشرق ولا ليستغلوا موارده ، وانما خرجوا اليه ليؤمنوا الاستقرار لأنفسهم ولسكان الشرق القريب ، فكانت حروبهم بمثابة ظاهرة سياسية تعبر عن نضوج الشعوب الشرقية القديمة فى صلاتها بعضها ببعض ، كما

تعبر عن حاجة تلك الشعوب لأن يتصل بعضها ببعض اتصالا كان من الضرورى ان يتخذ صورة الكفاح المسلح خلال فترات قصيرة ، ولكنه لم يلبث أن أتخذ صورة التعاون فى ميدآن التجارة وميدان الثقافة على حد سواء ، وبذلك جاءت تلك الاتصالات القديمة على أساس من تبادل السلع وتبادل ألوان الفكر والثقافة دون أن يكون هناك أى مظهر من مظاهر الطغيان ، الذى تهدر معه الكرامة الانسانية ، والذى يتخذ صورة استعباد الانسان لأخيه الانسان ، كما حدث فى عهد الاستعمار الحديث .

وهكذا ، نرى أن توسع أمة من الأمم فى العهد القديم ، بل توسع دولة مصر فى العهد الفرعونى ، لم يكن توسعا يهدف الى الشر أو الى الطغيان ، بقدر ما كان توسعا طبيعيا ترتب عليه تبادل المنافع وتشابك الثقافة بين مصر وجاراتها القديمة ، وهو تبادل زاد من توثيقه أنه لم تكن هناك اختلافات فى تكوين الجنس والسلالة بين مصر وجاراتها ، فلم يكن هناك اختلاف فى اللون أو فى الطباع أو فى الاتجاهات الروحية أو الثقافية العامة ، ولم يكن هناك فرق بين غالب ومغلوب ، كذلك الذى عرفناه فى عهد الاستعمار الحديث ، عندما طغت عناصر أوربا البيضاء على عناصر افريقية السوداء ، وأدى اختلاف اللون والجنس والطبع والثقافة الى مأساة تخيل معها الجنس الأبيض أنه سيد العالم الحديث .

ولكن قصة الاختلاف بين التوسع القديم والاستعمار الحديث قصة تحتاج الى مزيد من الايضاح ، ومزيد من الأمثلة من بعض الأمم القديمة الأخرى غير مصر ، سأحاول أن أستعرضه معكم فى حديثى القادم ان شاء الله .

الاستعمار اليوناني القديم

كان حديثى فى المرة السابقة عن مصر القديمة وصلاتها بالبلاد الشرقيـة القريبة منهـا ، وبينت كيف أن انتشار الحضارة المصرية لم يتخـذ صورة التوسع الاستعمارى ، فلم يخرج المصريون القدماء من بلادهم ليستعمروا بلاد الآخرين ، ولا ليستوطنوا تلك البلاد ، ولا ليقيموا من أنفسهم عليها سـادة يستغلون مواردها أو يتحكمون فى مصائر سكانها الأصليين ، وهكذا كانت مصر القديمة المثال الأول للدولة التى تبلغ من القوة شأوها ، ولكنها تغبط نفسها فلا تسعى الى فرض سيطرتها على العالم المجاور .

ولـكننى وعدت أن أختار لكم مثلا آخر من حركات التوسع فى العصور القديمة لأبين الفرق بين مصر وغيرها من دول العالم القديم وأممه وشعوبه ، وسأختار بلاد اليونان ، وهى بلاد كما تعلمون عريقة فى القدم ، كانت لها حضارة ازدهرت فى شرق البحر الأبيض المتوسط ثم انتشرت على طول سواحله ، كما توغلت بعض عناصرها أيضا فى نقط مختلفة من بـلاد الشرق الأدنى القديم ، والشىء الطريف أن الحضارة التى أنشأها الاغريق القدماء تنظر اليها شعوب أوربا فى الوقت الحاضر على أنها أصل حضارتهم ، لأنها حضـارة أوربية على كل حال ، ولأنها انتقلت من بلاد اليـونان الى بـلاد الرومان فأثرت فيها ثم انحـدرت منها الى الأمم اللاتينيـة ثم الى أوربا فى عهـد النهضة والعهد الحديث ، ولذلك فاننا اذ نتحدث عن بلاد اليونان القديمـة وتاريخ توسعها التجارى والسياسى والثقافى فى العهود القديمـة ، واذ نتحدث عن المستعمرات اليونانية القديمة ، فانما نتحدث عن ظاهرات ونظم تعتبر جزءا لا يتجزأ من التراث الاوربى ، فمثل هذا الحـديث اذا لابد أن

يلقى ضوءا على ما امتازت به أوربا فى عهد توسعها الاستعمارى الحديث

والشعب اليونانى القديم قد اختلف اختلافا واضحا عن الشعب المصرى القديم ، فسكان وادى النيل الادنى كانوا منذ نشأتهم الأولى معتمدين على موارد بلادهم المحلية ، ومستمسكين بوطنهم ومعتزين به ، بل ان وادى النيل ذاته كان وطنا رحيما بسكانه ، يدر عليهم من الخير ويسبغ عليهم من البركة مايجعلهم يتعلقون به ولا يبتغون عنه بعادا ، ولذلك لم يكن من طبع المصرى القديم ، ولا من طبع المصرى الحديث ، أن يرغب فى أن يهجر موطنه ليستعمر موطنا آخر ، ولا فى أن يترك بلاده ليسعى الى السيطرة على بلاد غيره أما بلاد اليونان فقد كانت بيئتها تختلف عن وادى النيل كل الاختلاف فهى بلاد فقيرة ، اضطر الفقر اهلها لأن يهجروا بلادهم ، ولأن يطمعوا فى بلاد الآخرين ، ولأن يبتغوا بناء المجد فى اوطان غير وطنهم الأصلى ، بل ان الفقر والاجداب شملا مختلف نواحى الحياة فى البيئة اليونانية القديمة ، وجعلاها بذلك تختلف كل الاختلاف عن البيئة المصرية،فالتربة فقيرة يصعب استغلالها فى الزراعة ، والنبات قليل يكاد يقتصر على الكروم وأشجار الزيتون والقليل من نباتات الشتاء ومراعيه ، والماء ذاته قليل حتى لسقيا الانسان ، بحيث أن المدن القديمة كانت لاتستطيع أن تنمو الى أكثر من حد معلوم بحسب مورد المياه الجوفية حولها ، فاذا نمت وازداد سكانها فوق هذه الطاقة المعلومة وجبت عليهم الهجرة والنزوح ابتغاء الرزق فى غير بلاد اليونان ، ولقد سهلت الطبيعة على أولئك الاغريق القدماء أن ينتقلوا الى الخارج ، فاحاطت بلادهم وجزرهم بالمياه التى تجرى فيها الرياح المعتدلة ، مما سهل على سفنهم نقل الافواج المتلاحقة المتقاطرة من السكان الزائدين الى خارج بلادهم فى سيل لا ينقطع ·

وهكذا خرج الاغريق القدماء من بلادهم وانشأوا سلسلة واسعة النطاق من المستعمرات التى شملت سواحل البحر الأسود ، وسواحل بحر ايجه وجزره الكثيرة ، وبعض نقط فى الشرق الادنى وفى مصر ذاتها ، وامتدت

تلك المستعمرات مع البحر الأبيض غربا الى سواحل ايطاليا وفرنسا وأسبانيا وبعض نقط من الساحل الافريقى ، وفى هذه الجهات جميعا اقتطع الأغريق القدماء لأنفسهم من الأراضى ما أقاموا عليه مستعمراتهم ، وشرعوا فى استغلال موارد تلك المستعمرات ، كما امتدوا بنشاطهم التجارى الى ما حولها ، فأصبحت كل مستعمرة تمثل نقطة ارتكاز يمتد منها نشاط التجارة والتبادل والنقل البحرى والبرى فى أوسع نطاق ، وتعلم الأغريق الاقدمون فى مستعمراتهم تلك ، أن يستغلوا صلاتهم بغيرهم من الشعوب ، وأن يستدروا خيرات التجارة ، وان يتخذوا من مستعمراتهم قواعد للاستعمار والاستغلال الاقتصادى فى صورة جعلت استعمارهم القديم يعود عليهم بخيرات ومنافع وارزاق ما كانت لتتاح لهم لو أن الأمر اقتصر على مجرد استغلالهم لبلادهم أو للنقط التى آشتملت مستعمراتهم فيما وراء البحار ٠

ولكن هناك ناحية أخرى من هذا الاستعمار الأغريقى القديم ، لاتتصل بالاستغلال المادى ، وانما تتصل بناحية اجتماعية وانسانية فى غاية الخطورة ذلك أن اليونان استمرءوا طعم التجارة ، فأتخذوها لأنفسهم حرفة مفضلة، ونبذوا غيرها من الحرف حتى فى بلادهم الأصلية ٠ وعندما تجمعت لهم الثروة عن طريق التجارة ، أخذوا يستخدمون غيرهم من أبناء الشعوب الأخرى ليقوموا لهم بالحرف الأخرى كالزراعة وغيرها من الأعمال اليدوية، وأخذ تجار اليونان القدماء يستجلبون من مستعمراتهم وغيرها افواجا من البشر ليعملوا فى الزراعة والأعمال الأخرى فى بلاد اليونان الأصلية أو فى بعض المستعمرات ذاتها ٠ وظهرت فى المجتمع اذ ذاك ، ولأول مرة فى تاريخ الانسانية ،ظاهرة الرق ، وتكونت فى المدن اليونانية وفى المستعمرات طبقة من العبيد حرمت الجانب الأكبر من الحقوق الانسانية ، وخصص أفرادها للقيام بالأعمال والحرف التى ازدراها أولئك الأغريق القدماء ٠

وهكذا انتهت تلك الحضارة الاغريقية القديمة الى أن ترتبت* عليها وصاحبتها ظاهرة الرق التى تعتبر نقطة سوداء فى تاريخ الأغريق القدماء ٠

بل أن ذلك الرق لم يكن فى واقع الأمر مجرد ظاهرة مادية ، يستعبد فيها الانسان أخاه الانسان ، ويستغل انتاجه المادى ، ويسخره لمصلحة طبقة معينة ، وانما انطوى الرق على ظاهرة أشد خطورة ، هى أن الانسانية أصبحت منذ ذلك الوقت منقسمة الى فريقين : فريق السادة ، وفريق العبيد ، وبذلك أهدرت الكرامة الانسانية لطائفة من بنى البشر ، وارتدت الانسانية الى الوراء أجيالا رجعت بها الى الفطرية الأولى ٠

هذه صفحة أخرى من صفحات التوسع والاستعمار القديم ، هى صفحة الاغريق القدماء ٠ وهم أولئك الذين تعتبرهم أوروبا الحديثة سلفهاالصالح وأصلها العريق ، فأى غرابة اذآ فى أن يأتى الخلف الأوربى مشابها للسلف الأغريقى ، وأية غرابة اذا فى أن يسيرالاستعمار الأوربى الحديث على وتيرة الاستعمار الأغريقى القديم ؟

الاستعمار الروماني

حديثي اليوم عن تاريخ الاستعمار وبعض صفحاته القديمة ، يتصـــل بالامبراطورية التى أنشأها الرومان القدماء ، فقد تحـدثت اليكم فى المرة السابقة عن استعمار الاغريق الذين يعتبـرهم الغرب ســلفهم العتيد فى الحضارة والتوسع الاستعماري على حد سواء ، والرومان هم الذين ورثوا الاغريق مباشرة من حيث السيطرة على حوض البحر المتوسط ، وتوسيع رقعة الاحتلال العسكرى والاستعمارى الى ما وراء شواطىء ذلك البحـــر . متوغلين فى منطقة الشرق الأوسط بطريقة ترسمها بعض المستعمرين فى العصر الحديث ، لا سيما أولئك الذين بنوا الامبراطورية البريطانية الحديثة فنقلوا عن الرومان وسائلهم فى الاحتلال العســكرى ، بل انهـم ركــزوا احتلالهم وقواتهم فى نقط تعتبر من مفاتيح الشرق الاوسط ، تماما كمــا فعل الرومان الأقدمون ، كما سنبين بعد قليل .

والاستعمار الرومانى بدأ من روما ذاتها ، وليس يهمنا التوسع الرومانى شمالا الى غرب أوربا والى الجزر البريطانية التى فتحها قيصر حوالى عام ٥١ ق . م حيث وجد أهلها يعيشون فى عهد من الهمجية والفطرية الأولى . وانما يهمنا توسع الرومان فى حوض البحر الأبيض المتوسط وفى منطقة الشرق الأوسط بالذات . ومن أهم النقط التى احتلها الرومان ونشروا عليهــا سيطرتهم الاستعمارية ، الساحل الشمالى لافريقية ، حيث كانت تقوم دولة قرطاجنة القديمة . وقرطاجنة هذه انما تمثـل حياتها وحضارتها جــزءا أصيلا من الشرق الأوسط القديم ، فان معالم المدنية الأولى انتقلت من مصر الى ساحل فينيقيا ، حيث تأثر الفنيقيون القدماء بثقافة مصر الفـرعـونية

الأولى ، وتوصلوا الى اكتشاف الكتابة ، ثم نقلوا الحضارة والفكر بالبحر من هناك الى ساحل افريقية الشمالية المواجه لايطاليا • وكان ذلك الاتصال القديم مظهرا من مظاهر انتشار المدنية الأولى وربط شرق البحر المتوسط بغربه برباط بدأ فى الشرق ، وامتاز بأنه رباط من الفكر والحضـــارة والثقافة قبل أن يكون رباطا من التوسع والسيطرة والسلطان • فلمـــا جاءت روما غيرت هذه الطريقة السلمية من اتصال الشعوب بعضها ببعض ، بل غيرت هــذا التقليد الذى بــدأ فى بلاد المشرق وأســتنه المصريون والفنيقيون القدماء ، والذى قام على أساس أن تكون صلة الشعوب بعضها ببعض صلة ثقافة وكرامة واحترام متبادل ••

غيرت روما هذا التقليد وتلك السنة الشرقية ، فعمدت الى أن تكـــون الحرب الطاحنة هى الوسيلة المعتمدة فى اتصال الشعوب بعضها ببعض ، وخرجت روما القديمة الى سواحل افريقية المقابلة ، فشـــنت حـــربا على قرطاجنة القديمة تعتبر فى واقع الامر أول حرب همجية عرفها التــاريخ • فهى قد امتازت بالقسوة البالغة ، كما امتازت بأنها كانت حــربا شاملة ، لم ينج منها الأطفال ولا الشيوخ ولا النساء من أهل قرطاجنة • الذين عمدت روما القديمة الى محاولة ابادتهم ومحوهم من الوجود • وهكذا كانت روما القــديمة المسئول الأول فى التــاريخ عن تحطيم تقاليـــد الحضـــارة القديمة والسيطرة على الشعوب المجاورة بالقوة ، وبناء امبراطورية عـلى أساس من القسوة والاستعباد • والشىء الغريب ـ أو لعله ليس غريبا ! ـ أن هذا التقليد الجديد الذى وضعته روما فى ذلك الوقت قد عاد فتجدد فى العهد الحديث ، عندما خـرجت دول أوربا الجنوبية الى شمال افريقيـة ، بل تجدد بصفة خاصة عندما خـرجت ايطاليـا الفاشية بالذات فى عهـــد موسولينى ، فعمدت الى أقسى الوسائل وأفظعها فى استعمار ليبيا الشقيقة ومحاولة ابادة شعبها ، لولا فضلة من الايمان فى نفوس اخواننا الليبيـين حفظت عليهم كيانهم ومكنت لهم ، آخر الأمر ، من مقاومة الطغيان •

ولننتقل الآن الى تاريخ روما الاستعمارى فى مصر وبلاد المشرق العربى • وسنجد هنا مرة أخرى أن تاريخ الرومان قد عاد مرة أخرى فى عهد الاستعمار الأوربى الحديث • وقد بدأت روما باحتلال مصر فى عام ٣١ ق٠م ، ثم انتقلت قواتها منها وأخذت تحتل الشرق الأوسط رويدا رويدا ، ثم اتخذت لها قاعدة مكينة فى الأرض الواقعة الى شرق نهر الأردن ، تماما كما حدث فى عهد الامبراطورية البريطانية الحديثة عندما بدأ الانجليز باحتلال مصر فى عام ١٨٨٢ ، ثم انتهزوا فرصة الحرب العالمية الأولى لينتقلوا بنفوذهم العسكرى واستعمارهم الى المشرق العربى ! ومن بلاد شرق الأردن القديمة انتشر الرومان ووسعوا نفوذهم نحو داخلية سوريا ونحو رأس الخليج « العربى » الذى يسميه بعض الناس بالخليج « الفارسى » • ومد الرومان الطرق العسكرية التى امتاز بها حكمهم الاستعمارى القديم ، وأنشأوا لأنفسهم فى بلاد المشرق معسكرات واسعة النطاق عاش جنودها وقادتها على امتصاص دماء سكان البلاد الأصليين ، وارسال ما يفيض من أطماعهم الى عاصمة الامبراطوريه فى روما •

ولقد امتاز عهد الاستعمار الرومانى القديم فى مصر والمشرق العربى بأنه عهد استغلال اقتصادى لا يكاد يناظره فى التاريخ الا ما امتاز به الاستعمار الأوربى الحديث فى هذه المنطقة من العالم ، فمصر القديمة أصبحت مزرعة تصدر القمح وطيبات ما تنتجه أرضها الى روما حيث بلغ مستوى الحياة والرفاهية والبذخ حدا لا نظير له ، فى حين انخفض مستوى معيشة سكان وادى النيل الى حد البؤس والتعاسة • ولعل هذا أن يذكرنا بما فعلته بريطانيا في العهد الحديث ، حيث وجهت اقتصاديات مصر نحو انتاج القطن لتغذية مصانع المنسوجات فى بلادها دون نظر الى أن تنتج أرض مصر من المواد الغذائية وغيرها ما يرفع مستوى الرفاهية للسكان •

أما في باقى بلاد المشرق العربى فقد اتخذت روما لها قواعد للتجارة

كما مدت الطرق ، واعتبرت هذا المشرق قنطرة توصلها الى بلاد الهند للسكان ٠

وجنوب آسيا ، حيث نمت تجارة الرومان ، واستغلت روما الموقع الجغرافى للمشرق العربى فى سبيل توسيع نطاق تجارتها القديمة ٠٠ تماما كما فعل المستعمرون الأوربيون فى العهد الحديث ٠

وبعد ، فهذه صورة من الاستعمار الأوربى القديم ، نخرج منها بأن أوربا الحديثة لا تكاد تختلف فى شىء عن أوربا القديمة ، فهى فى صلاتها بالشعوب الأخرى تعمد دائما الى السيطرة والطغيان ، ولا ترعى ما تقتضيه الانسانية من رعاية لوجه الحق وتراحم بين الانسان وأخيه الانسان ، ولكن قصة الاختلاف بين الشرق والغرب فى اتصال الشعوب بعضها ببعض قصة طويلة أرجو أن أتابع عرض صفحاتها عليكم فى أحاديثى القادمة ٠

التوسع العربي الإسلامي

كان حديثى فى المرة السابقة عن صفحة من صفحات الاستعمار القديم الذى خرج من أوربا على أيدى الرومان فى أيام امبراطوريتهم التى سلكت سبيلا فى التوسع والطغيان يشبه فى كثير من نواحيه ما سارت عليه فيما بعد الامبراطوريات الأوربية الحديثة لاسيما الامبراطورية البريطانية · وأود فى حديث اليوم أن أعرض معكم صفحة أخرى من التاريخ ولكنها تأتى من الشرق وتختلف اختلافا تاما عن صورة التوسع الأوربى القديم أو الحديث لأنها تعيد الينا ذكرى روح الشرق التى بدأت فى مصر القديمة عندما جمع المصريون من القوة والسلطان ما كان يتيح لهم أن يطغوا على العالم من حولهم ولكنهم مع ذلك تعلموا ضبط النفس ، ووجهوا صلاتهم بجيرانهم وجهة الخير وتبادل الثقافة والمنافع المادية ، دون أن ينزلقوا الى ما انزلق اليه اليونان والرومان من طغيان استعمارى عرضت عليكم بعض صفحاته فى احاديثى السابقة ·

وصفحة اليوم تتصل بالعرب الذين كتب لهم أن يرثوا ملك الرومان وملك الفرس ، ولكنهم مع ذلك حين توسعوا لم يتصف توسعهم من قريب ولا من بعيد بصفة الاستعمار أو الاستغلال أو السيطرة أو الطغيان·ولاشك أن العرب قد اختلفوا عن غيرهم من الأمم فى أمر بالغ الأهمية · ذلك أنه عندما آن الأوان لتجتمع للأمة العربية أسباب القوة والسلطان · ظهر من العرب دين جديد ، بشر صاحبه بروح الأخاء والمساواة ، كما بشر بأنه لاتفرقة بين الانسان وأخيه الانسان الا على أساس الايمان والتقوى ، أما الجنس وأما السلالة ، وأما اللون ،فهى كلها أمور ومقاييس لايجوز أن تجرى

على أساسها المفاضلة بين الأفراد ولا بين الشعوب ، وكان هذا المبدأ مبدأ خلقيا ساميا لم يسبق له نظير فى التاريخ كله ، بل كان هذا المبدأ ثورة على ماتعارف عليه العالم القديم فى عهود اليونان والرومان والفرس • ولذلك فان العرب عندما خرجوا برسالتهم الى العالم الخارجى ، وبدءوا ينشرون لواء الاسلام فى الشرق والغرب اضطروا الى محاربة حكومات الطغاة التى كانت تسيطر على البلدان المجاورة لهم ، ولكن شعوب تلك البلدان على النقيض من ذلك وجدوا فى العرب ورسالة الاسلام التى يحملونها مخرجا مما كانوا فيه من شدة وملاذا مما فرض عليهم من طغيان ، فرحبوا بالرسالة الجديدة ، وبلواء الاسلام الذى أظلهم بما نشر فى ارجاء المشرق القريب من حرية ومن أخاء ومن مساواة ، وحتى الشعوب أو العناصر التى لم تقبل الاسلام ، أو لم تدخل فيه الا رويدا رويدا ••• حتى هذه العناصر لم يكن تحمسها للتخلص من العهود الاستعمارية الغابرة والنصرة للعهد العربى الجديد بأقل من تحمس الشعوب والعناصر التى أختارت الاسلام ودخلت فيه عن رغبة وطواعية •

وهكذا اختلف العهد العربى الاسلامى عما سبقه من عهود فجاء عهداً ذا رسالة ، وتخلص أصحابه من وصمة الاتصاف بالقوة الغاشمة التى لاتعرف غير السيطرة والطغيان والاستعمار •

ويهمنا فى هذه المناسبة أن نشير الى حقيقتين تعتبران فى غاية الأهمية بالنسبة لمن يستعرض تاريخ التوسع العربى ليقارن بينه وبين التوسع الاستعمارى الأوربى القديم والحديث وليبرز ما هناك من فروق أساسية بين العرب وأهل أوربا حين أتيحت لكل منهما أسباب القوة والتوسع ، فاما الحقيقة الأولى فهى أن العرب حين توسعوا فى بلادهم لم يعملوا على أن يكونوا هم السادة فى الجهات التى توسعوا فيها •• ذلك أن الاسلام ذاته قد هذب نفوسهم وكبح غرائزهم ووجههم وجهة الخير والانسانية • فهم لم يكونوا فاتحين ولا غزاة بقدر ما كانوا دعاة ومبشرين

بعهد جديد ، ولذلك فان العرب لم يصروا حين خرجوا من جزيرتهم على أن تكون لهم السلطة أو يتركز فى أيديهم السلطان • وسرعان ماسمحت نظم الحكم الاسلامى وأوضاع الشريعة الجديدة لسكان البلاد الأصليين فى البلاد التى فتحها العرب أن يحتفظوا لأنفسهم بالسلطة الفعلية فى بلادهم ، وهكذا ظهرت عناصر جديدة من غير العرب الأصليين ، بل من سكان البلاد المفتوحة ومنها ايران واطراف الامبراطورية البيزنطية ، وجمعت هذه العناصر من أسباب القوة والسلطة فى بلادها مالم يتيسر للعرب أنفسهم ، ولن نستطيع أن نجد لمثل هذا الذى حدث فى أيام الامبراطورية الغربية الاسلامية نظيرا، الا فى عهد الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولا فى عهد الامبراطوريات الاوربية الحديثة من فرنسية وبريطانية وغيرها ، حين خرج الأوربيون ليسيطروا على المستعمرات وليحولوا بين ابنائها وبين أن ينالوا حظا من التعليم أو فرص الحياة التى تتيح لهم أن ينافسوا أبناء الدولة المستعمرة أو يشاركوا معهم فى الجاه أو السلطان •

وأما الحقيقة الثانية التى ينبغى ألا تغيب عنا ، والتى طمستها للأسف الشديد أغلب الكتب والمراجع الأفرنجية التى تصدت للكتابة عن ناريخ العرب والاسلام ، فهى أن الاسلام متهم بأنه دين انتشر بالقوة وبحد السيف ، وليست هناك تهمة أبعد عن الحق واوغل فى البهتان من هذه التهمة الباطلة ، فالاسلام بحكم أصوله المقررة لايمكن أن يفرض على الأفراد أو على الشعوب ، بل أنه دين يقوم على أساس أنعدام الاكراه وعلى ترك الحرية المطلقة للناس ليدخلوا فيه بمحض اختيارهم واننا اذا رجعنا الى التاريخ العسكرى ذاته لانتشار الفتوح العربية الأولى لوجدنا أن بعض الفتوح التى تمت كانت القبائل العربية تشترك فيها بصرف النظر عن ديانتها وهناك من الادلة القاطعة مايثبت أن بعض القبائل العربية التى احتفظت بمسيحيتها ولم تدخل الاسلام كانت تدخل جنبا الى جنب مع القبائل العربية التى أسلمت ، وفوق ذلك اذا ما استعرضنا تاريخ التوسع

الاسلامى وانتشاره كدين جديد فى جهات واسعة من العالم كداخلية آسيا وشرقها ، أو كالمحيط الهندى وجنوب شرق آسيا واندونيسيا ، فاننا لانلبث أن تبهرنا الحقيقة الكبرى وهى أن الاسلام لم ينتشر فى هذه البلاد بحد السيف ، ولا فى ظل الامبراطورية العسكرية ، وانما انتشر كدين سمح بشر به ابناؤه من التجار والملاحين وغيرهم ، وكان تبشيرهم ، بالدين الجديد خالصا لوجه الله ، وخاليا من كل غرض استعمارى فهو تبشير يختلف اختلافا تاما عما نراه من نشاط المبشرين الاوربيين فى أفريقية وغيرها فى العهد الحديث ، أما داخلية آسيا فان الثابت أن الاسلام انما انتشر فيها فى وقت هبطت فيه القوة العسكرية العربية وانكسرت فيها شوكت العرب من الناحيتين العسكرية والسياسية عندما خرج المغول من اطراف الصين وفتحوا العالم الاسلامى ودوخوا دول العرب والمسلمين فى غرب آسيا وحطموا بغدآد وغيرها من مراكز الفكر والثقافة الاسلامية فى ذلك العهد ، ومع ذلك لم يلبث الاسلام ان فتح قلوب المغول فى أواسط آسيا فانتشر بينهم وبلغ مشارف الصين الشمالية ، وهكذآ جاء انتشار الاسلام فى هذا الجزء من العالم القديم معاصرا لعهد من عهود ضعفه العسكرى ، مما ينفى عن العرب والاسلام صفة التوسع ونشر الثقافة بحد السيف كما تحاول الدول الاستعمارية الاوربية الحديثة .

هذه هى الصورة التى اتخذها توسع العرب بالبر والبحر ، وهى صورة تفرد للعرب وللاسلام مكانة خاصة فى التاريخ ، وتنفى عنهم تهمة التوسع الغاشم او الطغيان الاستعمارى ، ومن الخير لنا ونحن فى مجال النهضة المعاصرة أن نذكر هذه الصفحة الخالدة من تاريخنا المجيد .

توسع المغول

تحدثت فى المرة السابقة عن توسع العرب ، وبينت كيف أن هـــذا التوسع العربى فى العهد الاسلامى لم يكن ليشبه من قريب ولا من بعيد ذلك التوسع الاستعمارى الذى كان على يد الشعوب والأمم الأوربية القديمــة والحديثة ، والذى انقسمت بسببه الانســانية الى فئتين غالبـــة ومغلوبة ومستعمرة ومستعبدة ٠

وأود فى هذه المرة أن أنقل اليكم صورة أخرى من توسع تم على يد أحد الشعوب الآسيوية الأخرى فى القرون الوسطى ، هو الشعب المغــولى ٠ والشيء الطريف أن توسع المغول وفتوحهم للبلاد المجاورة لهم فى آســـيا وأوربا كان ذا طابع خاص ميزه عن غيره من حـــركات التوسع القـــديمة والحديثة ، بما فى ذلك توسع العرب أنفسهم ٠ ولن تكتمل لدينا الصورة عما أصاب بعض أجزاء القارة الآسيوية من استعمار فى العهود اللاحقـــة بما فى ذلك عهود الاستعمار التركى والأوربى الحديث ، دون أن نستعرض فى هذه السلسلة من الأحاديث صفحة الاستعمار المغولى الذى امتـــاز أول ما امتاز بالسرعة الخاطفة فى التوسع وبسط السلطان ٠ والمغول شعب من الشعوب التى نشأت فى أواسط القارة الآسيوية ٠ موطنهم الأصلى سهول منغوليا التى تكسوها الحشائش والأعشاب وترعاها قطعان الخيول التى يعيش السكان على لحومها وألبانها ٠ ولقد توســـع المغول من موطنهم هـــذا فى أكثر من دفعة واحدة ٠ وكانت احاطة عدد من البلاد ذات الحضـــارة المستقرة والثروة الطائلة لبلادهم مثل الصـــين فى الشرق والهنـــد فى الجنوب والشرق الأدنى وجنوب روسيا فى الغرب ٠٠ كان لاحاطة هذه

هذه البلاد الغنية بداخل آسيا القاحل الفقير أكبر الأثر في اغــراء رعاة المغول هؤلاء لأن يطمعوا فيما جاورهم من بــلاد الحضارات المســتقرة ، فخرجوا بركبهم وفرسانهم وشنوا حروبا خاطفة السرعة فتحوا بها تلك البلاد ودوخوا سلطانها وأقاموا دولا اشتهرت في كثير من الأحيان بالشدة والقسوة والطغيان فى الحكم ، ولكنها انتهت آخر الأمر بانحلال المغــول واندماجهم فى سكان البلاد التى طغوا عليها ..

ويهمنــا من تاريخ توسع المغول واستعمارهم تلك الفترة الواقعــة بين أوائل القرن الثالث عشر وأواخره ، وكان ذلك القرن فترةحروب طاحنة . بل كانت حروبه تمثــل أول حروب خاطفــة عرفهــا التــاريخ ، امتــازت بالسرعة والشدة فى آن واحد ، وخرج فيها المغول فى أربعة اتجــاهات أساسية ، انتهت بأن نشروا سلطانهم الكامل على المنطقــة الواقعـــة من شواطىء المحيط الهادى وأواسط القارة الأوربية وأطراف البحــر الأبيض المتوسط .. فأما الاتجاه الأول للمغول فقد كان نحو بلاد الصين ، وهناك انتشروا فى سهول الصــين الشــمالية ، وأزالوا ملك الامبراطــوريات القديمة هناك ، وأنشأوا لأنفسهم ملكا استقرت حاضرته فى مدينة بكين عاصمة الصين التقليدية فى الشمال . ولكن المغول بعــد أن استقروا فى الصــين لم يلبثوا أن اندمجوا فى سكانهم الأصليين اندماجا أضــاع معالم حياتهم الرعوية القديمة ، وبذلك لم يعد الصينيون الأصليون يميزون بين أنفسهم وبين هؤلاء السادة الذين أقبلوا اليهم من فيــافى آسيا الداخلية ، وهكذا دخل المغول بلاد الصــين غزاة وفاتحين ، ولكن الصــين لم تلبث أن هضمتهم واستعمرتهم روحيا وثقافيا فأصبح الغالب مغلوبا ان جاز أن يستخدم هذا التعبير فى تاريخ التوسع والاستعمار .

وأما الاتجاه الثانى لتوسع المغول فهو فى ناحية بلاد الهند حيث تسرب النفوذ المغولى تدريجا الى شمال الهند ، واستمر توغله هناك خلال بضـــعة قرون . ولكن قصة المغول هنا لم تختلف كثيرا عن قصــتهم فى بلاد

الصين ، حيث تأثر المغول أبلغ التأثر بالحضارات والثقافات القائمة فى بلاد الهند سواء منها الثقافات الهندية الأصيلة ، أم الثقافة الاسلامية التى دخلت مع الهند الى العرب • وهكذا مثل المغول فى تاريخ الهند دورا امتاز باندماج الغالب فى المغلوب واختلف اختلافا واضحا عما حدث فى الهند فى عهد استعمارها الحديث على أيدى البريطانيين

والاتجاه الثالث الذى انتشر فيه المغول هو السهول الجنوبية لروسيا الأوربية • وفى هذه المنطقة أيضا استقر المغول ليندمجوا فى السكان الأصليين اندماجا تاما • على الرغم من أن الحضارات السابقة فى سهول روسيا الجنوبية لم يكن لها من القوة مثل ما لحضارات الصين والهند ، فان المغول لم يلبثوا أن لاءموا بين أنفسهم وبين الحياة التى وجدوها فى جنوب روسيا وأطراف أوربا الشرقية ، وتأثروا تباعا بالحياة الصقلبية التى سبقتهم الى تلك الأقاليم •

وأما الاتجاه الرابع الذى انتشر فيه المغول فهو نحو الشرق الأدنى فى جنوب غرب آسيا • وهذا الاتجاه يهمنا بصفة خاصة لاتصاله القوى بتاريخنا العربى القومى • وقد وصل هولاكو الفاتح المدمر الى بغداد عاصمة العباسيين فخربها وأحرق معالمها ودمرها تدميرا تاما فى عام ١٢٥٨ الميلادى ، ثم اندفعت حشود المغول الراكبة نحو سوريا وحدود مصر ولكن أحد سلاطين مصر وهو السلطان قطز خرج الى عين جالوت فى أطراف فلسطين الشمالية ووقف وقفته المشهورة فصد المغول وكسر شوكتهم فى أول معركة كبرى خسرتها جيوشهم الحاشدة • وكانت وقفة مصر فى ذلك الوقت وفى معركة عين جالوت الخالدة سببا فى انقاذ الاسلام والحضارة العربية ، ولولا ما وفقت اليه مصر من صمود ودفاع موفق لشمل الخراب والدمار بقية مراكز الثقافة الاسلامية ولضاعت الفرصة على العروبة والاسلام فى ذلك الوقت فى أن تسترد اعتبارها وتنشر لواء ثقافتها ومجدها نحو الشرق من جديد • ولقد كان انتصار مصر ضد

التوسع التترى والمغولى فى موقعة عين جـــيـالوت ايذانا بأن يرتد الطغيان رويدا رويدا من حيث أتى ولأن ينتشر الاسلام بين المغول أنفسهم وفى معاقلهم فوق إيران وفيما وراءها نحو داخلية آسيا وأطراف بلاد الصـــين ٠

هذه صفحة من صفحات التوسع الذى بدأ من داخلية آســيا واتجه فى اتجاهات مختلفة لم يخل كل منها من طـرافة ٠ ولكن أقربها الينا توسعهم نحو قلب المشرق العربى ، وانه ليدفعنا اليوم ، ونحن نبحث خطط التكتل والدفاع عن هذا المشرق العتيد أن نرجع بأبصارنا الى وراء فنرى صـــفحة العروبة ناصعة فى احدى مواقع التاريخ الكبرى ٠٠ موقعة عين جالوت ٠

الاستعمار التركي

موضوع الحديث من صفحات الاستعمار وتاريخه ، هو الاستعمار التركى ، الذى بدأ من الأناضول فى أوائل القرن السادس عشر ، وانتشر ليعم المشرق العربى الآسيوى ومصر والسودان الشمالى وسائر أقطار شمال افريقية ، والذى استمر ثلاثة قرون كاملة أو ما يزيد على ذلك فى بعض الأقطار العربية ، والاستعمار التركى يستحق تاريخه منا انعام النظر ، لأنه يمثل ظاهرة أثرت فى حياة الشرق العربى فى آسيا وافريقية ، كما أثرت فى تاريخ الحضارة الاسلامية ، ومهدت السبيل لأن يصل الغرب الحديث الى بلاد هذا الشرق ، فيجدها فى حالة من الانحلال الفكرى والاجتماعى والسياسى العام ، مكنت الاستعمار الغربى من أن يسيطر على مرافق حياتنا سيطرة تامة فى غير كثير من العناء .

ولكى نتفهم طبيعة الاستعمار التركى وفلسفته ينبغى أن نميز بين طبيعة الأتراك ، وطبيعة العرب ، من ناحية الجنس والسلالة والمذهب فى الحياة . فالعرب كانوا خلال تاريخهم الطويل أمة وسطا بين الناس . تحتل بلادهم منطقة الاتصال بين ثلاث قارات ، كما تشرف على مفارق البحار الجنوبية وما وراءها من مناطق حارة من جهة ، ومفارق البحار الشمالية وما وراءها من مناطق معتدلة من جهة أخرى . ولذلك فقد تعلم العرب منذ نشأة حياتهم وحضارتهم أن يقوموا بالوساطة بين مختلف الشعوب ، وأن يكونوا همزة وصل بين الشرق والغرب . وقد ساعدهم على ذلك وجود الابل فى بلادهم ، اذ أن الجمل بطبيعته حيوان هادىء شديد المقاومة والاحتمال فى البيئة الصحراوية ، وهو يصلح كل الصلاحية لحمل الأثقال

والسير بها مسافات طويلة مع طول طرق القوافل • ولـــذلك أمـكن أن يستغله العرب فى نقل متاجر المناطق الحارة وسلعها من الموانى المطلة عـــلى المحيط الهندى والخليج العربى الى الموانىء المطـلة على شواطىء البحـــر الأبيض المتوسط ، ونقل متاجر المناطق المعتدلة وســـلعها فى الاتجـاه المضاد • وهكذا انقلب حداة الابل من الأعراب الى تجار ووسطاء ينقـــلون معها الأفكار والآراء ، ويكونون بذلك كله أمة وسطا بين الناس •

والى جانب ذلك فان العرب عندما أنزل عليهم القرآن فى بلادهم كانوا أول من تلقاه ، وأول من تفهم روحه على وجهها الصحيح فمارسوا رسالته بين الشعوب التى أمتد اليها سلطانهم ، ولم يترتب على فتوح العـــرب ، كما ذكرت لكم فى حديث سابق ، أى طغيان أو استعمار بالمعنى المعروف • وانما قامت رسالة الاسلام بين العرب والشعوب المغلوبة فى مطلع العهــــد الاسلامى على أساس الأخوة والمساواة الكاملة • وعلى أســـاس أن تكون المفاضلة بين الناس مستندة الى التقوى دون التفرقة العنصرية •

فلما جاء الأتراك وسيطروا على الشرق ، وحل العثمانيون محل العرب فى السيطرة السياسية على الشرق الاسلامى كله ، ظهر الفرق الواضـح بينهم وبين العرب •• ذلك الفرق الذى لن نستطيع تفهمه الا اذا رجعنا الى أصل الأتراك وطبيعتهم التى اكتسبوها فى بيئتهم الأولى •

فالأتراك قد نشأوا أول ما نشأوا فى مناطق المراعى الواقعة فى داخلية آسيا ، وفى بلاد تركستان ، وهى بلاد بعيدة منزوية ، لا تقع عند ملتقى القارات ، ولا تشرف على مفارق البحار • ولـــذلك فان الشعب الذى ينشأ فيها لا يكون من عادته أن يصل بين الشعوب التى تحيط به من كل جانب ، ولا أن يكون وسطا بين الأمم ، ولا وسيطا فى التجارة أو فى الـوان الفكر والثقافة • ولذلك فان الأتراك منذ نشأتهم الأولى لم يعتادوا اتساع الأفق ولا الوصل بين الأمم والشعوب •

وفضـلا عـن ذلك فـان البيئـة التى نشـأ الأتـراك فيهـا ، وكذلك بيئة الأناضـول التى انتقلوا اليهـا كانت بيئـة رعوية ولكنها تصلح أسـاسا لحيوان آخر غير الجمـل • هو الحصـان الذى كان موطنه الأصلى فى أواسط آسيا ثم انتقل مع الرعاة الى هضـاب الأناضول أيام الهكسوس والحيثيين ثم بعد ذلك وخلال العهود المتلاحقـة حتى عهد الأتراك العثمانيين • والحصان كما نعلم هو أساسا حيـوان فروسية وغزو . أكثر مما هو حيوان حمل للأثقال على طول طرق القوافل • والشىء الطريف أن من يركب الحصان يشعر دائما بقدر كبير من الاستعلاء والكبرياء على غيره من الناس • وهكذا تأثرت حيـاة الأتراك وفلسـفتهم بطبيعة بلادهم وبيئتهم • فأحسوابأنهم شعب غزو وفروسيه ، وشـعب جبروت واستعلاء على غيرهم من الشـعوب ، وانعكست هـذه الصورة فى تصرفاتهم عندما حلوا محل العرب فى السـيطرة السياسية على الشرق الأوسط • ولكنهم خالفوهم فى الأسلوب كل المخالفة • فلم يكونوا مؤهلين للاشتغال بالنقل والتجارة وحمل السلع والأفكار والثقـافة بين الشرق والغرب ، ولم يكونوا مؤهلين فى الوقت ذاتـه لتفهم الاسلام على أنـه دين الاخاء والمفاضـلة بين الناس على أساس التقوى ، وانما جرى الحـكام الأتراك خلال القرون الثلاثة التى استعمروا فيها الشرق على أسـاس الجبروت والقوة الغاشمة والاستعلاء •

وهناك ظاهرة أخرى لا تخلو من دلالة ، ترتبت على حلول الأتراك محل العرب فى السلطة ذلك أن الأتراك حينما أدركوا أنهم لن يسـتطيعوا أن يقوموا بالدور التجارى الكبير الذى كان العرب يقومون به فى الوصـل بين الشرق والغرب ، عمدوا الى طريقة حاولوا بها أن يخرج أمر التجارة من أيدى العرب ، فشجعوا تجارة البندقية ومدن ايطاليا فى ذلك العهد على الاقامة فى موانى الشرق العربى • واستن سليمان القانونى من التشريعات والقوانين ما منح الأجانب الأوربيين من الامتيـازات ما يسر اقامتهـم فى

بلادنا العربية وأصبح بمضى الزمن الأساس الذى استندت اليه الامتيازات الأجنبية التى قاست منها البلاد العربية والشرقية حتى عهد قريب ·

على هذا النحو ، نستطيع أن نقرأ هذه الصـــفحة التركية من تاريـــخ الاستعمار ، ونستطيع أن نتفهم الفرق بينها وبين الصفحة الناصعة النى كانت للعرب حين توسعوا بسلطانهم ليشعلوا مشرقنا العـربى · ولينشروا بين أهله ما جاء به الاسلام من قواعد العدل ومبادىء الأخاء والمساواة ·

مادية الحياة الأوربية
والثورة الصناعية كأساس للاستعمار

استعرضت فى أحاديثى السابقة بضع صفحات من تاريخ التوسع والاستعمار فى العهود القديمة والقرون الوسطى ، وسأنتقل بكم فى حديث اليوم الى مطلع الاستعمار الأوربى الحديث . ولكننى قبل أن أستعرض صفحات تاريخ هذا الاستعمار الأوربى ، أود أن أعالج معكم بعض الدوافع الأولى التى خرجت بسكان القارة الأوربية من قارتهم الصغيرة وانتشرت بهم فى مختلف أرجاء الأرض حيث نشر الاستعمار الأوربى لواء سلطانه العريض .

وقارة أوربا قارة صغيرة ، بل صغيرة جدا اذا ما قورنت بمساحة القارات الأخرى ، أو بمساحة المستعمرات العريضة التى انتشر اليها ظل النفوذ الأوربى ، فشمل العالم الجديد كله وافريقية كلها واستراليا كلها ، وسائر جزر المحيطات فيما عدا جزر اليابان ، ولم يترك من القارة الآسيوية غير الصين وبعض جهات آسيا الوسطى والعربية . ولابد لمثل هذه الظاهرة الفريدة فى التاريخ من علل وأسباب أصيلة ، هى التى مكنت للقارة الأوربية الصغرى من أن تسيطر خلال بضعة قرون على العالم كله تقريبا . وقد يكون العامل الأساسى الذى مكن لأوربا من أن تحقق هذه السيطرة العالمية الشاملة ، هو أن العهد الحديث كان عهد انقلاب فى موازين القوة العالمية ، وفى أسس الحضارة ومقوماتها ، وفى أسباب القوة التى تستند اليها السيطرة العالمية ، ذلك أن العهد الحديث فى تاريخ الحضارة البشرية امتاز بأنه عهد القوة المادية من جهة ، وعهد الثورة الصناعية من جهة أخرى ، فأما عن القوة المادية ، فان أوربا كمهد للحضارة

الحديثة ، فد اختلفت كل الاختلاف عن شمال افريقية وغرب آســـيا وبلاد الهند أوالصين ، كمهاد للحضارة القديمة .. تلك التى كانت دائما تجمـع بين المادة والروح ، بل تلك التى ظهر فيها التقدمالمادى فى الزراعة والتجارة وبعض فنون الصناعة ، ولكنها الى جانب ذلك ظهرت فيهاالفلسفة والحكمة كما ظهرت الديانات القديمة والمعروفة ، والتى اختلف بعضها عن بعض من حيث الشرك أو التوحيد ، ولكنها كانت جميعا ديانات تقوم على أسس من القيم الروحية وقواعدالمعاملة والأخلاق . هذبت من نفوس أصحابهاوطبعتهم بطابع الزهد والمحبة والاخاء والمساواة ، على نحو حد من سلطان المادة على تصرفات الشعوب ووجه احتكاكها بعضها ببعض وجهة الخير والحـق . على نحو لم يتح لشعوب القارة الأوربية أن تنعم به أو ببعضه خلال تاريخها الحديث .

حقيقة أن المسيحية دخلت الى أوربا فاعتنقها أهلها جميعـــا ، وان اختلفت المذاهب المسيحية التى ساروا عليها من جهة لأخرى فى تلك القارة . ولكن المسيحية كانت دخيلة على تلك الشعوب ، وهى بـــذلك كانت كالثـوب المستعار لايمكن أن يلبس جســـــد المستعير كالثوب الأصـــيل . وكأنى بسكان أوربا فى مختلف عهودها المسيحية لم يستطيعوا أن يفهموا المسيحية على أصلها كما فهمها سكان الشرق الأدنى ، مهد المسحية الأصيل . والذى يدرس تاريخ أوربا الحديث والمعاصر لا يلبث أن تدهشه الحقيقة المـرة ، وهى أن المسيحيين فى أوربا لا يزالون يحارب بعضهم بعضـــا ، حربا هى أبعد ما تكون عن الانسانية ، أو حتى عن قواعد الأدب وحسن الســلوك فى حين أنهم جميعا يعلمون أن المسيحية دين يقوم أساسا على التســـامح والمحبة بين الناس . بل ان كثيرا من الحروب التى خرج فيها الأوربيون عن قارتهم وتوسعوا فى مشارق الأرض ومغاربها كانت حروبا يستخدمفيها اسم ديانة المسيح عليه السلام ، مع أن المسيح كان من غير شك مثال المحبة والسلام على الأرض ..

كل هذا عن قوة الجانب المادى من الحضارة الأوروبية ، بل عن ضعف الجانب الروحى الذى مكن للقوة الغاشمة ، حين انطلقت من أوربا لتستعمر العالم ، من أن تسير فى طريقها الذى أدى الى كثير من نكبات الاستعمار • فأما عن الجانب الآخر الذى تميزت به حضارة أوربا . ودفع بها وبأهلها فى طريق التوسع الى غير نهاية ، فهو تلك الثورة الصناعية التى تميزت بها حياة أوربا ، ودفع بها وبأهلها فى طريق النوسع الى غير نهاية ، فهو تلك الثورة الصناعية التى تميزت بها حياة أوربا وحضارتها فى العهد الحديث ، والشىء الطريف أن من ينظر الى تاريخ الانسانية الطويل فى عهودها القديمة الوسيطة ، لا يلبث أن يلمح التدرج فى سلم الحضارة ، على أساس أن الزراعة أو الرعى كانا هما المقوم الأصيل فى الانتاج وفى حياة الأمم والشعوب ، بل هما الأساس الاقتصادى الذى قامت عليه النظم التى تحكم حياة المجتمع وصلات فئاته بعضها ببعض • فأما الصناعة وأما التجارة ، فقد كانتا عنصرين مكملين لحرفتى الزراعة والرعى ، ومعتمد عليهما أشد الاعتماد • ولم يعرف تاريخ البشرية شعبا قديما اعتمدت حياته على الصناعة الى القدر الذى اعتمدت عليه حياة بعض الشعوب الغربية فى العهد الحديث • ولئن كان التاريخ قد عرف بعض الشعوب القديمة والوسيطة التى اعتمدت فى حياتها على النقل والتجارة . كالفينيقيين فى العهد القديم ، أو كالعرب بعد ذلك ، فان تلك الشعوب لم تكن لتقصر حياتها على نقل السلع المادية والاتجار فيها ، وانما هى قد جمعت الى ذلك وساطة الفكر ، ونقل ألوان الثقافة وتبادلها بين مختلف الشعوب • ولذلك فان التجارة قبل أن تعرفها أوربا الحديثة كانت حرفة وصل ووئام بين الشعوب ، بل كانت حرفة تنطوى على رحابة الفكر وتبادل ثمرات المعرفة والنتاج الروحى بين مختلف الأمم والشعوب • وهى بذلك جعلت من تجار العهود القديمة رسل النور والثقافة بين أرجاء العالم المعمور •

فأين كان هذا ، من حياة التصنيع فى أوربا الحديثة ؟ تلك التى اعتمدت على استغلال القوى الآلية والفحم والحديد وغيرها من مقـومات الحـركة والانتاج الآلى والضخم الذى سخر قوى الطبيعة ومواردها على نحو جعـل من الصناعة حرفة تسيطر على غيرها من حرف الحياة ، ثم انتقل بالتجارة الى أن أصبحت عملية مادة ، يسعى أصحابها للبحث عن الأسواق والتكالب الشديد عليها ، دون نظر الى تلك الاعتبارات الروحية والثقافيـة التى كان يستهدفها تجار العهد القديم الوسيط • بل ان نشـأة الصناعات الكبرى فى أوربا لم تلبث أن جعلت مواردها المادية تقصر عن أن تغذى نار الصناعة المستعرة ، فخرج تجار أوربا يبحثون عن المـادة الخام خارج تلك القـارة الضيقة ، فتكالبوا على المستعمرات فى سائر جهات الأرض ليأخذوا منها المادة الخام وينقلوها الى مصانعهم فى القارة الأوربية على نحو لم يعرفه تاريخ التجارة فى العهود القديمة ، بل على نحو تميز بالجشـع الذى كان سببا أصيلا فى قيام كثير من الحروب الطاحنة بين شـعوب أوربا التى انساقت فى تيار التصنيع الحديث •

على هذا النحو نستطيع أن نصور مدنية أوربا الحديثه ، هذه المدنيـة المادية التى كان ينقصها عن مدنياتنا الشرقية القديمة جانب الثروة الروحية التى تهذب النفس وتحد من الجشع المادى ، بل على هذا النحو نستطيع أن نصور حياة أوربا الحديثة التى كادت تنتهى بأوربا أنفسـهم الى أن يدمر بعضهم الآخر • وليس معنى هذا مطلقا ، أننا ننتقص من حق المـادة ، أو نغض الطرف عنها كأساس للحياة الانسانية الراقية ، ولكن معناه أن المادة لا يجوز أن تتحكم فى حياة الشعوب الى القدر الذى ينحمى معه كل أثـر وكل سلطان للروح • ولكن قصة الثورة الصناعية الأوربية وانتشار سكان أوربا ليستعمروا الأرض خارج قارتهم قصة طويلة لعلى أستطيع أن أعرض عليكم بعض صفحاتها فى أحاديثى القادمة المقبلة ان شاء الله •

الاستعمار اللاتيني والاستعمار الانجلوسكسوني

مقارنة

موضوع هذا الحديث من تاريخ الاستعمار عن نشأة الاستعمار الأوربى الحديث ، وعما كان هناك من اختلاف بين الاستعمار الأوربى الذى نشأ فى العالم اللاتينى الواقع فى جنوب أوربا ، والاستعمار الذى نشأ فى العالم الأنجلوسكسونى فى شمال تلك القارة .

والناظر الى الاستعمار الأوربى فى عهده الحديث لا يلبث أن يبهره الاختلاف الواضح فى الطبيعة والطريقة بين هذين النوعين من الاستعمار . وقد يكون من المفيد لنا ، نحن الذين أكتوينا بنار الاستعمار ، والذين نسعى للتخلص من آثاره وأعقابه ، أن نحاول أن نرد الفرق بين هذين النوعين من الاستعمار الى أصوله وأسبابه الأولى .

والاستعمار اللاتينى قد بدأ فى كل من أسبانيا والبرتغال . وجاءت نشأته الأولى عندما نارت أسبانيا وامارة قشتاله بصفة خاصة ، على الحكم العربى فى الأندلس ، وضعف هذا الحكم الأخير فى قرطبة وغرناطة واشبيلية ، وتقلص ظل العرب والعروبة والاسلام بعد أن كان قد طبع الأسبان بطابع شرقى لا يمكن أن تنمحى آثاره . كان المسيحيون من الأسبان قد جمعوا من أسباب القوة ما أتاح لهم أن يسيطروا على معظم شبه جزيرة أيبريا ، وأن يصلوا الى مضيق جبل طارق ، وأن يطلوا من أشبيلية على أبواب المحيط الأطلسى . وفى الوقت نفسه حاذرت اسبانيا من أن تتابع نوسعها فى ذلك الوقت نحو شمال افريقية وآثرت أن تندفع بنشاطها الزائد الى ما وراء البحار فى أراضى أمريكا التى اكتشفها الملاحون بعد قليل .

وكانت النهضة التى ظهرت فى شبه جزيرة أيبريا قد شملت الى جانب اسبانيا ، بلاد البرتغال . وهى بلاد تتجه بطبيعتها نحو البحر ، وينحدر سطحها الى الغرب ، كما تجرى أنهارها جميعا لتصب فى المياه الدافئة للمحيط الأطلسى . ولم يجد رجال البرتغال مجالا يخرجون اليه نشاطهم غير ذلك المحيط . فنحن نعرف أن شبه جزيرة أيبريا كلها تقفلها من الشمال جبال البرانسى ، وتفصل بينها وبين غرب القارة الأوربية . ولذلك فان أسبانيا والبرتغال كانت حياتهما دائما تتجه نحو الجنوب ونحو الغرب ، فلما جاء عهد الاستكشافات البحرية الكبرى خرجت تلك الدولتان بنفوذهما ونشاطهما الفائض نحو البحار .

وكانت أمريكا قد اكتشفت فى ذلك الوقت ، كما كانت الرياح التجارية الشمالية الشرقية عاملا طبيعيا دفع بالسفن الشراعية لتتجه فى يسر وسهولة من موانى اسبانيا والبرتغال نحو أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية . وهكذا نشأ التوسع اللاتينى فى ظروف طبيعية ملائمة جعلته ينجه عبر المحيط الى العالم الجديد . وتوسع الأسبان والبرتغاليون بنفوذهم حتى شملت مستعمراتهم القسم الجنوبى من أمريكا الشمالية وجميع أمريكا الوسطى الجنوبية ، وهى كلها بلاد قبائل الهنود المنتشرين هنا وهناك ، وفيما عدا من هاجر الى تلك الشواطىء فيما بعد من سكان شرق آسيا الذين حضروا طواعية ، أو من سكان غرب افريقيا الذين نقلهم الملاحون الأوربيون المشتغلون بتجارة الرقيق .

فى هذه الظروف الخاصة ، نشأ الاستعمار اللاتينى فى أسبانيا والبرتغال . ولكن سكان هذين البلدين كانوا قبل ذلك قد احتكوا بالشرق عن طريق العرب والاسلام ، وفى هذا الاتصال التاريخى تعلموا واكتسبوا الشىء الكثير ، بل أتيحت لهم عن قرب أن يشهدوا كيف أن احتكاك الشعوب بعضها ببعض يمكن أن يكون عاملا من عوامل التقدم ، كما

يلمس كيف أن طبيعة الأشياء تقتضى الاختلاط بين الشعوب التى تتشابك مصائرها فوق أرض واحدة . وهكذا تعلم الأسبان والبرتغال عن العرب فى بلاد الأندلس كيف أن من الخير ألا تقوم الحواجز المصطنعة بين الغالب والمغلوب ، واعتادوا أن يروا الغالب يختلط ويتزاوج مع سكان البلاد الأصليين ، ولا يستشعر فى ذلك مهانة ولا حطا من قدره ، وكان الأسبان والبرتغال قد نقلوا هذه الصفة عن العرب وانتقلوا بها الى أمريكا الوسطى واللاتينية ، فاختلطوا بسكانها الأصليين وسكانها الوافدين من شرق آسيا ومن غرب افريقية ، ولم يجدوا فى ذلك غضاضة ، وانما ألفوه ودرجوا عليه ، فلم تقم بينهم وبين عناصر السكان الأخرى حواجز من ذلك النوع الذى نجده فى المستعمرات التى وصل اليها الأنجلوسكسونيون وسكان شمال أوربا ، الذين لم يألفوا فى تاريخهم أن يختلطوا بالسكان الأصليين ولا أن يصاهروهم ، وانما أصروا دائما على أن يحتفظ الغالب بدمه خالصا نقيا فى أراضى المستعمرات ..

على هذا النحو نستطيع أن نميز بين الاستعمار اللاتينى والاستعمار الانجلوسكسونى ، بل على هذا النحو نستطيع أن نتبين أثر العرب والشرق فى الأسبان والبرتغال ، ذلك الأثر الذى أكسبهم من المرونة فى الطباع والعادات ما جعلهم أقرب الى غيرهم من الشعوب ، وما انتهى بهم الى أن يندمجوا فى غيرهم من السلالات دون أن تحول حواجز اللون أو الاعتبارات الاجتماعية أو الدينية أو غيرها بينهم وبين أن يصاهروا سكان البلاد من المغلوبين . وربما كانت هذه الظاهرة من ما تميز به الاستعمار اللاتينى فى أمريكا اللاتينية ، وكذلك فى بعض البلاد الأخرى التى انتقل اليها الأسبان لا سيما جزر الفليبين حيث اختلط المستعمرون بسكان البلاد الأصليين ، ونشأت سلالة جديدة فى تلك الجزر التى تقع فى الطرف الشرقى الأقصى من القارة الآسيوية .

أما الاستعمار الأنجلو سكسونى الذى بدأ من شمال القارة الأوربية ،

فان أصحابه لم تقم بينهم وبين الشرق صلة تاريخية سابقة · انما هم قد نشأوا نشأتهم الأولى فى عزلة عن الحضارات الشرقية الأصلية التى لم تكن تعرف التفرقة العنصرية ولا التمييز بين الناس على أساس الجنس واللون والسلالة فلم يعتد سكان شمال أوربا اختلاط السلالات بعضها ببعض ، ولم يلمسوا ثمرات مثل هذا الاختلاط من النواحى الاجتماعية أو الانسانية العامة ، ولذلك فانهم عندما خرجوا الى مستعمراتهم فاحتلوا معظم أمريكا الشمالية ، وانتقلوا الى أطراف مختلفة من افريقية وآسيا وجزر المحيطات ، واحتلوا كذلك كل استراليا ·· انما خرجوا الى تلك المستعمرات جميعا ووجدوا بها عناصر مستضعفة من السكان الأصليين ، ولكنهم لم يشأوا أن يختلطوا بتلك العناصر ولا أن يأخذوا بيدها ، وانما حاولوا فى غالب الأحيان أن يقضوا عليها أو أن يقيموا بينهم وبينها حاجز الجنس واللون وفواصل العنصرية التى انتهت بأن بقى سكان البلاد الأصليين بمعزل عن غزاتهم ، لا تقوم بينهم وبين هؤلاء الغزاة صلة الدم والمصاهرة ، ولا أواصر الاختلاط أو الاندماج الاجتماعى ·

ولكن التمييز بين هذين النوعين من الاستعمار يحتاج الى شىء من التفصيل ، لا سيما فى النتائج التى ترتبت على كل منهما · وموعدنا لهذا التفصيل فى الصفحات المقبلة

الاستعمار الاوربي الشمالي الأنجلوسكسوني فلسفته في الاستغلال المادي للمستعمرات (مواد خام . أسواق) شركات شعبية

كان حديثى فى المرة السابقة من هذه السلسلة عن الاستعمار الذى نشأ فى أوربا وبدأ أول الأمر فىاسبانيا والبرتغال ثم انتشر بعد ذلك الى شمال أوربا حيث الأمم السكسونيةالتى خرجت الى العالم بنوع جديد من الاستعمار اللاتينى الذى بدأه الأسبان والبرتغال ، فاللاتين من سكان أوربا الجنوبية كانوا قد اتصلوا من قبل بالعرب ، ونقلوا عنهم روح التسامح والاندماج فى غيرهم من الشعوب • ولذلك فان المستعمرين عندما خرجوا من بلادهم ليستقروا فى المستعمرات اختلطوا بسكانها الأصليين وصاهروهم فلم يقم بين الغالب والمغلوب أى حاجز من ناحية الجنس أو لون البشرة أو السلالة • أما المستعمرون الذين خرجوا من شمال أوربا ووسطها فانهم ساروا فى مستعمراتهم على نهج يختلف عن ذلك كل الاختلاف • فقامت فى مستعمراتهم حواجز قوية تفصل بين الغالب والمغلوب • بل بين السيد والمسود •

والحقيقة أن الاستعمار الذى نشأ فى شمال أوربا ووسطها كان استعمارا جديدا انبنى على فلسفة جديدة ، وبذلك اختلفت طرقه ووسائله ، كما اختلفت نتائجه وأعقابه ، عما كانت عليه الحال فى التوسع والاستعمار الشرقى القديم • ففى العهود القديمة ، وكذلك فى حالة الاستعمار الأسبانى والبرتغالى الذى تأثر بروح الشرق ، كان التوسع يأتى نتيجة لأطماع الفاتحين من الملوك أو قادة الشعوب ، وكان استعمار بلد ما انما يأتى رغبة فى المجد وتوسيع مدى السلطان الفردى للحكام • أما الاستعمار الحديث فى غرب أوربا فانه جاء على أساس مختلف ، لأنه ظهر نتيجة

لنهضة صناعية شاملة أدت الى تكاثر السكان وزيادة احتياجاتهم فى غرب أوربا وشمالها ووسطها الى حد عجزت عنه الموارد المادية لذلك الجزء من القارة الأوربية . وترتب على ذلك ظهور أطماع للأمم والشعوب الأوربية الحديثة . وهى الأطماع التى أدت الى أن يأتى التوسع الجديد فى صورة توسع شعبى واسع النطاق . فهاجرت جموع كثيرة من بريطانيا ومن شمال فرنسا وبعض أجزاء غرب أوربا ووسطها لتستقر فى المستعمرات ولتفتح لنفسها مجالا حيويا جديدا فيها كذلك تكونت الشركات والهيئات غير الحكومية التى بنت الأساطيل وخرجت بها الى المستعمرات . وأنشأت لنفسها جيوشا أهلية فتحت بهم الأراضى فيما وراء البحار ، وكونت لنفسها امبراطوريات تختلف فى نشأتها عن الامبراطوريات القديمة كل الاختلاف . وحتى فى حالة بلجيكا التى خرج مليكها ليوبولد فى القرن الماضى ليستعمر الكنغو البلجيكية ، لم يكن فتح تلك المستعمرة لمجرد توسع ليوبولد ، أو بناء مجده فى الحكم والسلطان ، كما كان يحدث فى العصور الغابرة ، وانما كان هذا الملك بمثابة رئيس لشركة كبيرة أنشئت لاستغلال أراضى الكنغو ذات الانتاج الاستوائى الوفير سماها الاتحاد الدولى لاستكشاف الكنغو . وبذلك كله اختلفت صورة هذا الاستعمار الأوربى الشمالى عما عرفه العالم فى عهوده القديمة والوسيطة . وأصبح معنى هذا الاستعمار الحديث أن أوربا انما خرجت بقوتها الشعبية كلها تبحث عن مجال حيوى تضيف به الى مواردها وتجعل من مئات الآلاف من الأميال المربعة ، وعشرات الملايين بل مئاتهم من الآدميين ، موارد مادية وبشرية تسخرها كلها فى خدمة الوطن الأصلى للمستعمرين ، ومن أجل تحقيق رفاهية سكانه من السادة الذين خرجوا بطاقتهم وقوتهم فأنشأوا المستعمرات فى ما وراء البحار .

وعلى هذا الأساس جاء الاستعمار الأوربى الحديث مختلفا من حيث نظامه السياسى . فالمستعمرة لا تستغل استغلالا اسميا يكتفى فيه ببسط

السيادة والسلطان لفرد من الأفراد • وانما هى تستغل من أجل تحقيق رفاهية شعب أوربى يقف كله من وراء حركة الاستعمار ، ولـذلك كان لابد من أن يصبح استغلال المستعمرة أمرا واقعيا ، وأن يكون تسخير مواردها شيئا فعليا لا يكتفى فيه بالمظاهر ، وانما يمتد الاستعمار والاستغلال الى صميم الحياة الانتاجية للمستعمرة • واتخذ هذا الاستغلال صورة مزدوجة • وأصبحت المستعمرة موردا للمواد الخام من جهة ، كما أصبحت سوقا لتصرف مصنوعات المستعمرين من جهة أخرى • فأما عن استغلال المواد الخام فقد زاد من حدته أن ظهور الاستعمار الحديث فى أوربا قد عاصرته النهضة الصناعية الكبرى فى غرب أوربا وشمالها ووسطها • وهذه النهضة الصناعية قد ترتب عليها اتجاه أوربا فى جملتها نحو الصناعة أكثر من اتجاهها نحو الزراعة • كما ترتب على انتشار الصناعة وما تدره من انتاج وتتيحه من عمل ازدياد كبير وسريع فى عدد سكان أوربا ، الذين تركزوا فى مناطق الصناعة ومدنها الكبرى • ونتيجة لكل هذا أصبحت أوربا فى حاجة شديدة الى المواد الخام التى تستخدم فى تحقيق الغذاء والكساء لسكانها المتكاثرين ، كما أصبحت فى الوقت نفسه بحاجة ظاهرة الى المواد الخام التى تحتاج اليها مصانعها فى صناعة الأنسجة والصناعات الكيميائية وغيرها مما لا تستطيع أوربا أن تنتجه ، لأنها مواد خام لا يمكن أن تنتج الا فى المناطق الحارة أو الدفئة •

وعلى هذا كله أصبحت أوربا فى حاجة متزايدة الى المستعمرات التى تزودها بالمواد الخام • والشىء الطريف ان هذه الظاهرة أدخلت أوربا ومستعمراتها فى دائرة لا تنتهى ، فكلما نمت الصناعة ازداد احتياجها الى المستعمرات الواسعة التى تنتج ما تحتاج اليه من المواد ، وكلما اتسعت المستعمرات زاد حاصلها وتوافرت فى الصناعة الأوربية أسباب النمو • وقد ترتب على ذلك بالطبع أن ازداد تشبث الدول الاستعمارية الأوربية بمستعمراتها على مر الزمن •

وأما عن استخدام المستعمرات كأسواق لتصريف المنتجات الأوربية الصناعية ، فقد تمثلت فيه صورة أخرى من صورة الاستغلال المادى البشع للمستعمرات وسكانها الأصليين . فالدول الأوربية كانت تشترى المحاصيل الأصلية من المستعمرات بثمن بخس ثم تنقلها الى بلادها لتردها فى هيئة مصنوعات تباع بأغلى الأثمان . وقد يكون القطن مثلا من أبرز الأمثلة على ذلك . فهو يشترى خاما بثمن بخس ، جنيهات معدودة لكل قنطار ، ثم يباع مصنوعا فى هيئة أقمشة بأضعاف ذلك الثمن .

والشىء الطريف أن المستعمرين لم يشاءوا أن يستمروا فى استغلال الموارد الاقتصادية على هذا النحو فقط ، وانما عمدوا فى أغلب الأحيان الى منع المستعمرات من أن تأخذ بوسائل التصنيع . وذلك امعانا فى أن يضمن المستعمرون لأنفسهم دوام استمرار استغلال مستعمراتهم كأسواق لتصريف المصنوعات ، وبذلك يستمر المستعمرون فى شراء الخامات الرخيصة واستخدام الأيدى العاملة فى بلادهم فى نقل تلك الخامات بالسفن الى الدولة المستعمرة ، ثم فى صناعة تلك الخامات ، ثم فى نقلها مرة ثانية الى المستعمرة وبيعها هناك للسكان الأصليين . وهى سلسلة متكررة من عمليات الاستغلال لا تنتهى الا لتبدأ من جديد .

ولكن استغلال المستعمرات أمر لم يقف عند هذا الجانب المادى وحده ، وانما كانت له صور أخرى سنعرض لها فى الصفحات القادمة .

توسع الأسبان والبرتغال

في هذه الصفحة وبعض الصفحات التالية أتحدث من تاريخ الاستعمار الأوربى عن تطور هذا الاستعمار وتنقل مركز قوته فى القارة الأوربية من مكان الى مكان ، وتداول السلطة الاستعمارية بين الشعوب الأوربية ، شعبا وراء شعب ، منـذ أيام الاسـبان والبرتغال فى القرنين الخامس عشر حتى أيام التوسع الألمانى والايطالى فى القرن العشرين .

فالناظر الى الاستعمار الأوربى وتاريخه يجد أن مركز القوة فيه قـد انتقل من بلد الى بلد ، فى ظروف اتصلت كلها بالكفاح الأوربى ، الذى تمثـل فى تشاحن دول أوربا وتكالبها من أجل توسيع سـلطانها على مناطق الاستعمار فى مختلف أرجاء الأرض ، وقد بدأ الاستعمار الأوربى بظهور عهد الاستكشافات البحرية على أيدى الأسـبان والبرتغال الذين توسعوا فى ناحيـة أمريكا الوسطى والجنوبية من جهـة ، وعلى سواحل افريقية وفى اتجاه الهند وأطراف المحيط الهادى من جهة ثانية . وكانت أسبانيا قد اندفعت فى سبيل القوة وجمع السلطان ، فلما انتهت دولة العرب فى بلاد الاندلس ، ولم تجد أسبانيا أمامها من تناضله من العَرَب ، وجهت نشاطها الفائض نحو البحار ، فاندفعت بكل قوتها فى الاتجـاه الجديد ، وساعدها على ذلك أن هذا المجال كان مجالا بكرا لا ينافسها فيـه أحد غير جارتها البرتغال وهى التى اندفعت معها فى نفس الاتجاه البحرى . ولكن البحار وما وراء البحار كانت أوسع من أن تضيق بهـاتين القوتين الناشئتين ، فوجد كل من الأسبان والبرتغاليين مجال الاستعمار فسيحا فى العـالم الجديد أو فى العـالم القديم . وتصـادف فى الوقت نفسه أن

كانت ثقافة هاتين الأمتين متشابهة فكلاهما من أصل أيبرى ، وكلاهما تأثر بالحياة والفكر اللاتينى ، وكلاهما آمن بالمسيحية الكاثوليكية وتعصب لها أشد التعصب وأقواه ، وكلاهما كان فى الوقت ذاته بعيـدا عن المشكلات الأوربية لأن جبال البرانس تحميه من الشمال وتوجهه نحو البحر أكثر مما توجهه نحو القارة الأوربية • وفى الوقت نفسه كـانت أسـبانيا والبرتغال قد استفادتا من غير شك من صـلاتهما المبـاشرة وغير المباشرة بحضارة العرب وحضارة الشرق • ولذلك اتسع أفقهما وتكونت لديهمـا تلك النظرة العالمية التى تدفع بصاحبها فى طريق التوسـع والبحث عن كل جديد يقع وراء الأفق البعيد • بل اننا اذا نظرنا الى تاريخ أسـبانيا والبرتغال فى العهد الوسيط فاننا نجد أن اتصالهما بالعرب الأندلسيين قد وقاهما شر الدخول فى تلك المرحلة التى عـرفت فى أوربا بمـرحلة القرون الوسطى المظلمة •

وهى المرحلة التى دخلت فيها أوربا بعد سـقوط روما وامبراطوريتها على يد الرعاة الذين تقدموا فى أواسط آسيا فى القرن الخامس الميلادى ، ثم خيمت الظلمة على سائر القارة الأوربية بعد أن اضـمحلت امبـراطورية البيزنطيين ابتداء من القرن الثامن الميلادى •

وهكذا دخلت أوربا الشرقية والوسطى والشـمالية فى عهد من الظلمـة الحالكة والاضمحلال والانطواء والجهالة ردها الى الوراء آمادا طويلة وقطع سبيلها فى الاتصال بالعالم الخارجى • ولم يسلم من هـذا المصـير غـير قسمين من أوربا هما صقلية وايطاليا من جهة ، والأندلس وشبه جـزيرة ايبيريا من جهة أخرى • فأما صقلية وايطاليا فقد كانا احتكاكهما بالاسلام واستفادتهما بصلاتهما بالعرب محدودين فى نطاق لم يسمح لهما بالتقدم والبروز فى عالم السياسة والثقافة الا فى تلك المدن الايطالية التى شاركت فى التجارة ابان القرون الوسطى مشاركة قيمة ولكنها بقيت محدودة المدى والأثر على كل حال •

أما المنطقة الثانية التي نجت من ظلمة القرون الوسطى فهي الأندلس وأسبانيا والبرتغال • فقد قامت هناك مدنية عظيمة رعاها العرب الذين مثل عهدهم ، خلال ثمانية قرون ، قنطرة انتقل بها سكان شبه جزيرة ايبيريا من تاريخهم الروماني القديم الى تاريخهم الأسباني والبرتغالي الحديث الذي بدأ في القرن الخامس عشر الميلادي • وهكذا طلعت كل من أسبانيا والبرتغال على العهد الحديث دون أن تمرا بمرحلة من الظلمة والتأخر • ومكن لهما ذلك من أن تضطلعا برسالتهما الخطيرة في عهد التوسع الحديث بعد أن خرج ملاحوها واكتشفوا أمريكا من جهة وطريق رأس الرجاء الصالح والهند من جهة ثانية •

وهناك ظاهرة أو مصادفة سياسية أخرى جعلت أسبانيا والبرتغال تنفردان في ذلك العهد بالتوسع والاستعمار والسيطرة العالمية • ذلك أن سلطان العرب كان قد أفل في الشرق العربي نفسه كما أفل في المغرب العربي ذلك أن الاتراك العثمانيين كانوا قد سيطروا على الشرق العربي ودخلوا مصر ذاتها في أوائل القرن السادس عشر ، وبذلك عجزت مصر اذ ذاك عن أن تحمي طريق التجارة التقليدى الذى يمر بأراضيها الى الهند •

وعلى الرغم من أن هذا الطريق كان أقرب الطرق بين الشرق والغرب ، وكان يمر بمناطق آهلة بالسكان ، عامرة بالمدنية القديمة ، فان طريق رأس الرجاء الصالح استطاع أن ينافسه وأن يغلبه ، على أنه طريق طويل محفوف بالمخاطر والأهوال ، يمر بسواحل افريقية التي تنتشر فيها الأمراض والأوبئة . ولا يمر بأي مركز من المراكز الآهلة بالسكان أو ذات المدنية العريقة • وهكذا استفاد الأسبان والبرتغال في تلك المرحلة الأولى من مراحل التوسع الأوربي الغربي •• استفادوا من اتصالهم القديم بالعرب فأصبحوا أصلح العناصر الأوربية لحمل عبء العهد الجديد ،

كما استفادوا من سيطرة الأتراك على الشرق ، وسدهم لطريقه ، فانفردوا بتجارة الهند عن طريق البحر الطويل ·

وكانوا طبيعيا فى هذا التوسع الجديد من جنوب غرب أوربا أن يكون لأسبانيا النصيب الأوفى لأنها أكبر وأوسع من البرتغال ، كما أنها كانت أكثر منها قوة ، وأكثر اتصالا بالعرب الذين ورثت ملكهم فى الأندلس ، وبذلك كان من نصيب أسبانيا التوسع فى جنوب أمريكا الشمالية وجميع أمريكا الوسطى ومعظم أمريكا الجنوبية ، وكذلك التوسع فى بعض جهات افريقية الشمالية العربية وبعض مناطق الشرق البعيد ومنها جزائر الفلبيين · أما البرتغال فقد توسعت فى بلاد البرازيل التى اصطبغت بالصبغة البرتغالية دون سائر أمريكا الجنوبية التى سادتها اللغة والثقافة الأسبانية · وكذلك توسعت البرتغال فى بعض جزر المحيط الأطلسى وعلى سواحل افريقية الغربية والشرقية وبعض النقط المحدودة فى بلاد الهند ·

على هذا النحو تمت المرحلة الأولى من مراحل التوسع والاستعمار الأوربى على أيدى الأسبان والبرتغال · ثم تلتها مراحل أخرى موعدنا بها الصفحات التالية من هذه الأحاديث ·

انتقال مركز الاستعمار إلى غرب أوروبا وظهور التشاحن والحروب بين الدول الأوروبية

فى صفحة اليوم من صفحات الاستعمار ، أتحدث عن انتقال الاستعمار ومركز قوته من بلاد أسبانيا والبرتغال فى جنوب غرب القارة الأوربية ، الى بلاد شمال غرب أوربا فى هولنده وبريطانيا وشمال فرنسا • ذلك أن التوسع الاستعمارى الأوربى كان قد بدأ ، أول ما بدأ ، فى أعقاب ظهور حركة الاستكشافات البحرية العظمى ، تلك التى اكتشف بها ملاحو أسبانيا والبرتغال عالم أمريكا الجديد من جهة ، وطريق رأس الرجاء الصالح حول افريقية الى الهند والشرق البعيد من جهة أخرى • وكان العامل الأساسى فى ظفر أسبانيا والبرتغال بقصب السبق فى مضمار التوسع والاستعمار هو أن شبه جزيرة ايبيريا ، وبلاد الأندلس بالذات . كانت نقطة الاتصال بين الشرق والغرب ، فتعلم فيها سكان جنوب غرب أوربا عن العرب والمسلمين ما وسع آفاقهم ، وجنبهم الدخول فى ظلمة القرون الوسطى الأوربية ، وفتح أعينهم على العالم الخارجى ، وحفزهم لأن يخرجوا مستطلعين لعلهم يبلغون مراكز الثروة والغنى فى بلاد الشرق البعيد ، عن طريق الدوران حول افريقية ، بعيدا عن مركز الاسلام التقليدى فى قلب الشرق الوسيط • وقد جرهم هذا الاستطلاع نحو الهند والشرق الى أن يكتشفوا الأمريكيتين ، عندما حاولوا الدوران حول الأرض عن طريق الغرب ، ليبلغوا أطراف آسيا الشرقية فيما وراء المحيط العظيم •

ولكن هذا السبق الذى أحرزته كل من أسبانيا والبرتغال ، لم يكن ليدوم طويلا ، لأنه جاء فى عهد متأخر نسبيا ، فلم يبدأ الا فى أواخر القرن الخامس عشر وعلينا أن نذكر أنه فى ذلك الوقت ، بل قبله ، كانت

بعض جهات أخرى فى جنوب أوربا ووسطها قدبدأت تتصل بالعالم العربى الاسلامى اتصالال وثيقا ، وتنقل عنه بعض ما يوسع آفاقها ، ويدفع بها فى طريق النهضة والتقدم • وتلك الأجزاء التى اتصلت بالشرق العربى والاسلامى هى مدن ايطاليا ، التى عرفت سبيلها الى النور والمدنية والعرفان عن طريق تجارتها مع الشرق • ومن تلك المدن البندقية وبيزا وغيرهما من مدن شمال ايطاليا ، حيث ظهرت أولى بشائر النهضة الأوربية الحديثة ، تلك النهضة التى تسربت أضواؤها وآياتها من شمال ايطاليا الى وسط أوربا وغربها ، حيث استقرت آخر الأمر فيما نسميه الآن اقليم الأراضى الوطيئة ، فى هولندا وبلجيكا وما يتصل بهما أو يطل عليهما من شمال فرنسا وأرض الجزر البريطانية •

وفى الوقت ذاته كانت النهضة الأوربية الحديثة التى اشتد ساعدها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر قد بدأت تسير ، رويدا رويدا ، نحو نهضة جديدة هى نهضة الصناعة ، وما ترتب عليها من ازدياد كبير ومطرد فى عدد سكان غرب أوربا ، ومن رغبة ملحة فى أن يجد أولئك السكان المتكاثرون سبيلهم الى مجال حيوى جديد يتوسعون فيه ويهاجرون اليه فيما وراء البحار •

وفى هذه الأثناء كانت أسبانيا قد بدأت تحس أن مركز الثقل والقوة لابد أن ينتقل من شبه جزيرة ايبيريا ذات الأرض المقفرة نسبيا ، الى غرب أوربا حيث الخيرات أكثر ، وحيث كانت النهضة الأوربية الحديثة قد بدأت تدب بلون جديد من الحياة والعمران • وعند ذلك حاولت اسبانيا ، ونجحت خلال فترة من الزمن ، فى أن تضع يدها على بعض الأراضى الوطيئة فى هولندا • وذلك لكى تتحكم فى مخرج أوروبا الغربى ، بعد أن تحكمت بفضل موقعها هى ، فى مخرج أوربا الجنوبى الغربى •

على أن انتقال أسبانيا بقوتها الى الأراضى الوطيئة ، وسيطرتها على ذلك المنفذ

الخطير من منافذ أوربا ، كانت ايذانا بعهد من الشحناء والتكالب بين العناصر الأوربية ، التى كانت النهضة وتكاثر السكان قد دفعت بها الى ميدان التوسع فيما وراء البحار .

وهكذا كان الطمع والتكالب بين القوى الأوربية ، والاصطراع من أجل التحكم فى باب أوربا الشمالى الغربى الذى تشرف منه على البحار المؤدية الى أمريكا والى الشرق .. كان ذلك الطمع ايذانا ببداية عهد جديد من التكالب الاستعمارى بين دول أوربا ، ذلك التكالب الذى كان مظهره البسيط ، أو سببه الظاهرى ، هو تلك الاختلافات الحادة بين الدول الأوربية ، وما صاحبها من حروب عنيفة فوق أرض القارة الأوربية ، أو على أديم البحار المحيطة بها ، أو فوق أرض بعض المستعمرات النائية . ولكن سبب ذلك التشاحن الأصلى ، وعلته الأولى انما هو ذلك التكالب من أجل السيطرة على المستعمرات والمهاجر التى كانت الدول الأوربية وشعوبها تسعى من أجل الحصول عليها فى أمريكا وفى آسيا وافريقية على حد سواء ، بل وفى تلك الجزر الكثيرة المنتشرة على أديم الكرة ومنها جزيرة استراليا ، تلك القارة النائية التى استطاع شعب واحد أن يظفر بها كلها لنفسه .

والحق أننا اذا نظرنا الى تاريخ أوربا الحديث والمعاصر كله ابتداء من القرن السابع عشر حتى الآن ، فاننا نجد أن هذا التاريخ كان تاريخ حروب متصلة ، لم تترك شعبا واحدا من شعوب أوربا الا جرته اليها أو كوته بنارها ، بل ان هذه القارة الصغيرة ، أوربا ، التى بقيت بمنأى عن العالم وفى ركن بعيد منه ، منطوية على نفسها ، لا تعرف أحدا ولا يكاد يعرفها أحد ، فيما عدا أطرافها الجنوبية فى بلاد اليونان وايطاليا والأندلس وبعض أطراف بلاد الغال .. هذه القارة الصغيرة المنزوية التى دخلت منذ أيام الرومان فى عهد من الظلمة والاقطاع هو العهد الوسيط ، لم تلبث أن خرجت بها النهضة الحديثة الى عهد جديد من التقدم المدنى

العنيف صاحبه توسع خطير حاول به أهــل غرب أوربا وأممهم ، لاسيما هولنده وبريطانيا وفرنسا ، أن يرثوا حركة التوسع التى بدأها الأسبان والبرتغال • وفى هذه المحاولة لم تجد شــعوب غرب أوربا أمامهــا الا أن تصطرع فيما بينها اصطراعا عنيفا ، لا من أجل اقتسام الغنائم الاستعمارية فيما بينها فحسب ، وانما من أجل أن يظفر كل منــــها بالنصيب الأوفى من تلك الأسلاب • وقد أدى ذلك التكالب العجيب بين شعوب غــرب أوربا الى اصطراع دخلت به أوربا كلها فى حرب متصلة ، لا تكاد أوربا تخرج من احدى جولاتها الا لتستانف الصراع فى جولة جديدة • بل ان هذه الحروب الأوربية التى نشأت فى قارة كانت تقع دائمــا على هامش العالم المتمدين ، لم تلبث فى أكثر من حالة واحدة أن انقلبت الى حــرب عالمية اكتوى العالم كله بنيرانها ولهيبها المدمر •

وهكذا ، اقترنت قصة الاستعمار بقصة الحرب ، وانتهى الاستعمار بأن يكون الوسيلة الأساسية الى الفناء والدمار • ولكن لتفصيل هــذا كلــه أحاديثا أخرى لا تخلو من شجون •

فلسفة الاستعمار الأوروبى الحديث

حديثي من صفحات الاستعمار ، ينصب على جانب خاص وعميق من جوانب الاستعمار وتاريخه ، ألا وهو الفلسفة التى انبنت عليها فكرة الاستعمار الاوربى الحديث ، والصفات والقواعد الخلقية التى انبنى عليها سلوك الدول الاستعمارية ، التى خرجت من آوربا فى عهد نهضتنا الصناعية الحديثة ، لتفرض سيطرتها على العالم فيما وراء البحار .

ونحن نعرف أن أوربا الحديثة ، فى عهد النهضة كانت قد بدأت تضع لنفسها فلسفة جديدة فى الحياة ، وكان مفكروها ورجال الفكر فيها قد بدءوا يتأملون تاريخ الانسانية ، ويحاولون فى الوقت نفسه أن يجدوا لقارتهم الصغيرة ولشعوبها المتطاحنة مكانا تحت الشمس بين القارات والشعوب الأخرى ، بل مكانا فى تاريخ الانسانية تبرز فيه قارة أوربا رغم صغرها ، ويبرز الدور الذى لعبته شعوبها رغم حداثة عهدها وعهدهم بالحضارة البشرية .

وكان أولئك المفكرون فى عهد النهضة الأوربية قد شعروا بمركب النقص ، الذى يرجع الى أن قارتهم صغيرة ، تقع فى ركن من أركان العالم ، بعيدا عن وسط العالم القديم ، ذى الحضارة والمدنية العريقة ، بل كان أولئك المفكرون ، قد أحسوا بمركب النقص لأن قارتهم لم تشارك فى تاريخ الحضارة البشرية وبناء التراث الانسانى ، الا مشاركة ضعيفة جدا ، ومتأخرة جدا ، حتى لكأن أوربا كانت تعيش من الناحية الحضارية ، عالة على غيرها من القارات ، وكانت شعوبها المستضعفة فى العصور القديمة والقرون الوسطى ، تعيش على ما يلقى اليها ، أو يتسرب نحوها من فضلة

الحضارة ، أو بصيص النور الذى يخرج من المركز التقليدى للحضارة الانسانية فى الشرق الادنى ، ليجد سبيله بعد لأى وعناء كثير الى داخلية أوربا وأطرافها الشمالية الغربية ٠

قرأ فلاسفة أوربا ومفكروها فى عهد النهضة الأول ، وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تاريخ الانسانية فوجدوه حافلا بالحضارة والحكمة ، التى نشأت فى الشرق الأدنى ، وحوض البحر المتوسط ، وفى بلاد الهند أو بلاد الصين ، ولكنهم لم يقرءوا شيئا عن الحضارة فى أوربا ، الا ما نشأ منها فى جنوب تلك القارة ، متأثرا بحضارة الشرق القريب فى آسيا وافريقية ، ثم نظر أولئك الفلاسفة والمفكرون والأوروبيون ، الى حياتهم فى عهد النهضة الاوربية الحديثة ، فوجدوا أن مظاهر الحكمة وأصولها واضواءها التى بدأت تنير الغرب ، انما ظهرت كلها فى بلاد المشرق ، فأما العلم والفكر الحديث ففد بدأ فى بلاد اليونان ، ولكنه كان على كل حال متأثرا أبلغ التأثر بالحكمة السابقة ، فى مصر والشرق القريب ، وأما الناحية الروحية والدينية ، التى غلبت على أوربا ، فقد نشأت كلها مع المسيحية ، فى الشرق مهبط الوحى ، ومن هناك انتشرت المسيحية الى جنوب أوربا ، فلاقت من العناء أشده ، ومن الاضطهاد أعنفه ، ومن الأهوال أعظمها وأقساها ، حتى أذن الله للمسيحية ولنور الشرق أن يغلب وأن ينتشر ٠ ولكن هذا التاريخ الذى عرفه فلاسفة أوربا وحكماؤها فى عهد النهضة الحديثة ، وما جاء فى أعقابها قد أوقع فى نفوسهم شيئا من الشعور بأن أوربا لم يكن لها نصيب « ظاهر » فى تاريخ الفكر الانسانى ، وان ما أصابته من هذا الفكر فى العهود اللاحقة انما جاء مستعارا من الشرق ، ولقد كان أولئك الحكماء والفلاسفة الاوربيون بشرا من الناس ، فأحسوا بشىء من الحقد والغيرة ، وتكشفت نفوسهم عن غير قليل من مركب النقص ، وكأنى بهم قد ارادوا أن يتشفوا لهذا الماضى ، وان يلبسوا أوربا ثوبا من القوة يزيل عنها الشعور بالنقص ، ويعوضها

من ذلك عظمةالكبرياء الظاهرى ، والتعالى على غير أساس ، وقد انعكست صورة ذلك كله فيما كتبه بعض أولئك الحكماء والفلاسفة ، اجتزىء منه فقرة كتبها المفكر المعروف « منتسكيو » فى كتابه الذى ذاع صيته ، وعرف بأنه أساس من أسس الفكر الاوربى الحديث ، وشريعة من الشرائع التى تفتق عنها ذلك الفكر الاوربى ، لترسم ، طريق المعــاملات بين الشعوب والأمم ، ألا وهو كتاب « روح القوانين » ، فقد جاء فى أحد فصول ذلك الـكتاب نص « لا اقرأه الا شـعرت أن وراءه مركب النقص ، الذى ينطوى على غير قليل ، من الحقـد الدفين والتشفى الظاهر ، وهــذا النص هو .

« اذا كان على أن أدافع عن حقنا المكتسب فى اتخاذ الزنوج ذوى البشرة السوداء عبيدا ، فاننى أقول أن شعوب أوربا ، وقد افنت سكان ، أمريكا الأصليين ، لم يكن أمامها ، الا أن تستعبد شعوب افريقية ، لكى تستخدمها فى استصلاح ارجاء أمريكا الشاسعة ، وما شعوب افريقيــة الا جمــاعات سوداء البشرة من أخمص القدم الى قمة الرأس ، ذات أنوف فطساء الى درجة يكاد من المستحيل أن نرثى لها ، وحاشا لله ذى الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحا ـ أو على الأخص روحا طيبــة ـ فى جســد حالك السواد » .

فى هذا النص ، وفى هذه الصيغة البشعة من الفـكر الأنانى الضيق ، صــاغ هــذا المفـكر الأوربى ما جال بخـاطره من فكر يتصــل بفلسفة الاستعمار ، وكأنى به قد أراد أن يعتــذر عن خطيئة أبنــاء أوربا ، الذين عملوا على ابادة الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية ، ليحلوا محلهم فى أرض تلك القارة ... أراد أن يعتذر عن ذلك ، فأورد عذرا هو أقبح من الذنب ، وكأنى به قد أراد أن يبرر استعباد الاوربيين لزنوج افريقية ، حين نقلوا بضعة ملايين منهم من القارة الافريقية ليستخدموهم عبيدا فى تعمير أراضى هذه القــارة الجديدة ، وفيافيها الواسـعة ، فاعتذر بأن ذلك كان أمرا ضروريا ، بعــد أن أعمل الاوربيون فى أمريكا الشـمالية وسائل التقتيل

والافناء فى سكان القارة الأصليين ، فكأن أوربا التى أحالت الاستعمار الى معارك للافناء بالنسبة لسكان أمريكا من الهنود الحمر ، لم تر بدا من أن تنقل زنوج افريقية بالجملة ، لتسخرهم عبيدا فى فلاحة الأرض التى أهلك الاستعمار سكانها الأصليين ، الشيء الغريب أن هذا اللون الخطير من الفكر الذى هو أبعد ما يكون عن الرحمة الانسانية ، أو عن الوازع الانسانى الذى ينبع من الضمير ... هذا اللون من الفكر لم يكن مقصورا على مفكرى أوربا وفلاسفتها ، وانما أمتد منهم الى بعض رجال الدين فى أوروبا فى ذلك العهد ، فبعض أولئك الرجال لم يتورعوا ، مع الأسف الشديد ، عن الانزلاق فى تيار مثل ذلك الذى سار فيه منتسكيو . ومن المتواتر فى بعض الكتب التى تستعرض الاستعمار الأول أن نفرا من أولئك الذبن كانوا يتصدون بغير حق الى قيادة حركة الاستعمار والتوسع باسم الدين ، كانوا يصفون الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان ، بل كانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمتخلف الوسائل ، ومن ذلك نشر الأمراض الجديدة ، ونقل عدواها الى أولئك الهنود الحمر ، فتحصدهم أوبئتها ، وتطهر البلاد منهم فى غير شفقة ولا رحمة !..

ذلك لون من ألوان الفكر الاوربى الذى ظهر فى القرون التى تلت عصر النهضة الاوربية الحديثة ، وهو لون لم تعهد الانسانية له شبيها من قبل ، اللهم الا فى بعض عهود الدمار القليلة كعهد التتر والمغول ، وما أبعد هذه الروح التى اتصف بها الفكر الأوربى ، عن روح الشرق ، التى اتسمت دائما بالخير والرحمة ، والعدالة والاخاء .

تحليل العوامل النفسية
التي تقع من وراء الاستعمار الأوربي الحديث

أود أن أتابع معكم فى صفحه اليوم من صفحات الاستعمار الأوربى الحديث حديث صفحة عرضتها فى المرة السابقة ، وهو يتصل بفلسفة الاستعمار والمبادىء والقواعد الخلقية التى انطوى عليها سلوك الأوربيين عندما انطلقوا من شمال قارتهم وغربها ليستعمروا بلاد العالم فيما وراء البحار ، انطلاقا كانوا مدفوعين فيه ومتأثرين بآراء يصوغها ويعبر عنها رجال الفكر والفلاسفة من أمثال مونتسكيو من جهة ، ونفر من أولئك الذين يتصدون للكلام باسم الدين من جهة أخرى . وعلى الرغم من أن أوروباالتى انطلقت لتستعمر العالم الخارجى ، ولتفرض عليه وعلى شعوبه سيطرتها وسلطانها ... أوربا هذه كانت تدين بالديانة المسيحية ، وهى الديانة التى عرف عنها منذ نشأتها أنها تدعو الى المحبة والى التسامح السخى الكريم ، ومع ذلك فان المسيحية التى أنزلت فى الشرق نورا وهداية للناس ، انتشرت الى أوروبا فأخذها الناس وفهموا منها مافهموا ، ولكنهم مع ذلك لم يفهموا أطيب ما فيها ، ولا أعمق مافيها من قواعد خلقية ، تجعل من الضمير رقيبا على النفس ، وتفرض على من يؤمن بها أن يسلك سبيل المحبة والتسامح فى الحياة

والناظر الى تاريخ أوربا الحديث والمعاصر كله ، لا يلبث أن تبهره حقيقة يتجلى فيها مظهر من مظاهر التناقض العميق ، فسكان أوروبا هم جميعا من المسيحيين ، ولكنهم مع ذلك حين يقتتلون تنكشف حروبهم عن همجية العهد السابق للمسيحية ، وعن نفوسهم التى لم تكد المسيحية تمسها الا فى ظاهر الأمور ، فحروب أوروبا بعيدة عن المحبة بعدها عن التسامح الانسانى الكريم ، وهذه الحروب التى نشأت منذ بدايتها مقترنة أشد الاقتران وأقواه

بالمطامع الاستعمارية وتكالب الدول الأوربية من أجل المستعمرات ، هـذه الحروب انطوت على مجموعة من الظاهرات النفسية يجمل بنا أن نحللها في حديث اليوم ، لعلنا بذلك أن نتفهم بعض الدوافع التى انسـاقت بأوربا الحديثة فى طريق السيطرة والاستعمار ٠

والظاهرة النفسية الأولى ، هى شهوة الامتلاك واقتناء الأشياء ، وهى ظاهرة يعرفها علماء النفس لأنها الرغبة فى امتلاك أكبر قـدر ممكن من الأشياء والطيبات ، وتبدأ هذه الظاهرة برغبة الفرد فى أن يمتلك الطيبات من أجل اشباع حاجاته الأصلية ، ولكنها لاتلبث أن تنقلب الى رغبة جارحة فى احتلال كل شيء وأى شيء مهما كان المرء فى غنى عنه ،ومثل هذه الظاهرة التى بدأت عند الفرد العادى من ابناء أوروبا فى العهد الحديث ، وشـجع على ظهورها تنوع أسباب الحياة واحتياجاتها فى عهـد الثورة الصـناعية والمدنية الحديثة ٠٠٠ هذه الظاهرة التى ضاعت معها القناعة وقل الرضا بين الناس لم تلبث أن انتقلت الى الدول الاستعمارية الحديثة ، فسعى كل منها الى أن يمتلك أوسع رقعة فى المستعمرات ، حتى ولو كانت تلك الرقعة مقفرة من الحياة والعمران ، كما حدث فى حالة ايطاليا التى توسعت على غير طائل فى صحراء ليبيا وصحراء الصومال ، وفى حالة فرنسا التى أمتلـكت قلب الصحراء الكبرى كله ، بل وفى حالة بريطانيا التى لم تغنها مسـتعمراتها الغنية فى الهند وغيرها عن أن تسعى الى امتلاك بعض الفيـافى فى قلب استراليا أو بعض المناقع والمستنقعات قرب خط الاستواء ٠

والظاهرة النفسية الثانيـة هى حب التنـافس هى حب الظهور وحب المباهاة ولو كانت على غير أساس ولا أصل من الواقع ، وهذه الظاهـرة يتصف بها فى العادة الضعفاء من الناس والمصابون بمركب النقص أوبشعور العظمة الجوفاء وبعض محدثى النعمة ممن يريدون أن يعوضوا بحاضرهم بعض ما فاتهم فى الماضى ، وأن يستروا بهذا الحاضر نقائص المـاضى القريب أو البعيد ، وحب التظاهر والمباهاة هذا اتسم به الأفراد فى أوربا فى عهـد

النهضة الحديثة وما تلاها من قرون ، وتحكى عنه قصص كثيرة يقرؤها كل من اراد أن يطلع على تاريخ أوربا الحديث ، وكأن روح الغرور قد انعكست من الأفراد الأوربيين الذين استشعروا القوة والعظمة فى عهد الحضارة الأوربية الى الأمم والشعوب والحكومات التى انطلقت بقوتها الى العالم الخارجى واتصف استعمارها بغير قليل من الصلف والكبرياء ، قاست منه الشعوب المحكومة فى المستعمرات واورثتها شعورا عميقا من الألم والمرارة أشاع الحفيظة والحقد والضغينة بين الحكام والمحكومين فى سائر المستعمرات .

وأما الظاهرة النفسية الثالثة فقد ترتبت على الظاهرة الثانية التى أشرت اليها ، ذلك أن حب العظمة والغرور قد أديا الى ظهور روح التنافس الشديد بين أبناء أوربا ، بل بين دولها وحكوماتها التى انطلقت فى ميدان الاستعمار وهذا التنافس الشديد والتناحر هو الذى قطع السبيل فى أغلب الأحيان على دول أوربا فلم تستطع أن تجد سبيلها الى أن بدا المستعمرون وكأنهم قد اتفقوا فيما بينهم وتعاونوا ، كان اتفاقهم ظاهرا ورياء أكثر منه واقعا واخلاصا ، وكان تعاونهم من أجل الحزبية والوقيعة ، فتأتلف بعض جماعاتهم ضد بعض جماعاتهم الأخرى ، وتتحالف دولهم لتؤلف كتلا من القوى الاستعمارية تنافست كتلا أخرى ،فكان تعاون الدول الاستعمارية فيما بينها كان فى واقع الأمر أقرب الى التآمر من أجل الشر منه الى التعاون الصادق من أجل الخير .

وأما الظاهرة النفسية الرابعة والأخيرة التى اتصف بها الأوربيون شعوبا وحكومات فهى حب القوة ، وهذه ظاهرة تعتبر فى واقع الأمر رباط الظاهرات الثلاث السابقة وهى حب الامتلاك والغرور والتنافس غير المشروع فحب القوة يجمع تلك الصفات جميعها ، وقد ترتيب عليه أن سعت الدول العظمى فى القارة الأوربية لآن تبنى لنفسها أمجادا على انقاض العالم ، فهذه أوربا ودولها استشعرت بعض النقص فى مواردها وفى انتاجها ، فلم

تكتف بما وهبها الله ، ولم تسع الى أن تضاعف من انتاجها بتنمية مواردها والتفنن فى استغلالها ، وانما سلكت سبيلها السهل الى العالم الخـارجى فتكالبت من أجل امتلاك المستعمرات ، وسخرت موارد هذه المستعمرات فى الأموال والأنفس ، وفى القوى المادية والبشرية ، لتخدم بها أغراضـها ولتتخذ منها أسباب القوة والسيطرة والعظمة بين الأمم والشعوب ، وكلما اجتمعت لدولة من دول أوروبا الاستعمارية أسباب القوة عن طريق امتلاك مستعمرة من المستعمرات ، ازداد نهم تلك الدولة الى امتلاك مسـتعمرات جديدة ، وأشتدت رغبتها ، بل شهوتها فى فرض سلطانها عـلى مزيد من المستعمرات ، تتخذ منه مزيدا من القوة والسلطان .

على هذا النحو ، نستطيع أنّ نحلل النزعات النفسية التى كانت من وراء فلسفة الاستعمار الاوربى الحديث ، بل من وراء السلوك الذى اتسـمت به تصرفات الدول الاستعمارية وحكوماتها ، والقواعد والمبادىء الخلقيـة التى وجهت ذلك السلوك ، وما أبعد ذلك كله عن روح الشرق ومبادئه الخلقيـة السامية التى عرفها أبناء الشرق أول ما عرفوها فيما جاءت به المسيحية من محبة وما نزل به الاسلام بعد ذلك من أخاء وعدالة ومساواة بين الناس .

شركات الاستعمار

أعود فى صفحة اليوم من صفحات الاستعمار الى تاريخ التوسع الاستعمارى من غرب أوربا وشمالها ، وهو التوسع الذى تعلمه الهولنديون وسكان الأراضى الوطيئة عن الأسبان ، فى وقت كان الانجليز والفرنسيون يأخذون نصيبهم فيه من التوسع والانتشار الى ماوراء البحار ، وفى هذا الوقت ، لاسيما فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كانت الشعوب الاوربية بدأت تحس ضيق الأرض فى قارتها عن أن تتسع لأعدادها المتكاثرة بانتظام ، فسعت تلك الشعوب لأن تنظم هجرتها الى العالم الجديد لتستعمره وتمتلك فسيح ارجائه وظهرت حركة للهجرة ، بعضها تلقائى سعت اليه العناصر المخاطرة من السكان الذين خرجوا من غرب أوربا أو من الجزر البريطانية ليبحثوا عن رزقهم فيما وراء البحار ، وبعضها الآخر قد نظمته الشركات الاستعمارية التى تألفت لاستغلال ما اقتطفته من أراضى المستعمرات فى أمريكا أو فى آسيا وافريقية ، وكان من الضرورى لها أن تشجع بعض العناصر من سكان أوربا لتقبل على الهجرة ولتتخذ الشركات منها ادوات للعمل فى المستعمرات فما ان بعض لشركات تألفت فى غرب أوربا ، ولم يكن لها من عمل غير انشاء السفن وتنظيم خطوط الملاحة ، والعمل فى نقل المهاجرين من القارة الأوربية الى أراضى المستعمرات ، ثم العودة بالسفن تحمل خيرات المستعمرات ومنتجاتها لتنشر بها الخير على المقيمين من أبناء القارة الأوربية ، بل ان الشىء الطريف أن بعض شبكات النقل والملاحة هذه قد انشأت لأنفسها فروعا تعمل بين المستعمرات ، فكنا نرى سفن هذه الشركات تتخصص فى نقل الزنوج من أفريقية الى جزر الهندالشرقية ، والى أمريكا الشمالية ليعملوا هناك عبيدا فى الحقول الواقعة

ى الجهات الحارة من أمريكا الشمالية والوسطى ، والتى لانسمح الظروف المناخية فيها للرجل الأبيض بأن يمارس العمل الزراعى العنيف فى المزارع الواسعة وهكذا انقلبت بعض شركات النقل والملاحة الى شركات تعمل فى الرق وتجارته ، ونقل المستضعفين من الزنوج من مكان الى مكان ·

على ان الشىء الطريف فى تاريخ الشركات الاستعمارية التى تألفت فى ذلك الوقت والتى استمر عملها خلال جانب كبير من القرن التاسع عشر ، هو ان الاستعمار الذى طلعت به أوروبا الحديثة على العالم ، أتخد صورة جديدة لم يعرفها التوسع ولا الاستعمار فى عهودها السابقة . فالأمر هنا لم يعد مقتصرا على أن حاكما من الحكام أو فاتحا من الفاتحين ، أراد أن يبنى لنفسه مجدا شخصيا ، فجمع جنوده وجيوشه وتوسع فى افليم مجاور لقاعدة ملكه وسلطانه ، ثم انتهى توسعه الى أن فرض هذا الحاكم سلطته وسلطانه أو حكمه الظاهرى على البلد الذى فتحه ··· لم يعد الأمر كذلك فى حالة أوربا الحديثة ··· وانما الأمر هو أن شعوب أوربا ذاتها بدأت تشعر بالرغبة الى التوسع وفرض السيطرة فنشأت حركة الاستعمار ، ومن ورائها دوافع تشمل الشعوب والأفراد ولا تقف عند الحكومات أو الحكام ولئن كانت العهود القديمة التى كان بعض حكام الشرق أو العالم القديم ينشرون فيها سلطانهم تنتهى الى فرض شىء من السيطرة الظاهرية ، على بعض الممتلكات ، فان الاستعمار الأوربى الحديث ، اختلف عن ذلك ، لأنه كانت من ورائه ارادة شعوب بأسرها ورغبتها فى أن تشبع حاجاتها المتزايدة عن طريق استعمال المستعمرات ، فليس يكفى أن تفرض على المستعمرة سيادة مظهرية ، ولا أن تجبى منها جزية معلومة تؤدى الى لسلطان ، كما كانت الحال فى الشرق لقديم ، وانما يستلزم الاستعمار الحديث أن تسخر المستعمرة كلها بمواردها الطبيعية وسكانها من أجل تحقيق الرفاهية لشعب بأسره يقوم فى احدى الدول بأوربا ، التى انطلقت بأطماعها الجامحة

لتلتهم أكبر قدر واوسع مساحة وأوفر عدد تستطيع أن تضع يدها عليه فيما وراء البحار .

وهكذا بدأ الاستعمار الأوربى الحديث في شمال أوربا ، وفى صورة جديدة ، أصبح الشأن فيه ، هو الشعب الهولندى ، أو الشعب الفرنسى ، أو الشعب البريطانى ، وكان الوكيل عن هذا الشعب ، والعميل الذى يتولى الوساطة بينه وبين المستعمرات انما هو تلك الشركات الكثيرة ، التى تألفت فى أوروبا لتفتح المستعمرات ، ولترفع عليها لواء الدولة باسم المصالح الشعبية ، أو لتستغل موارد المستعمرات فى التجارة ، أو لتتولى نقل المهاجرين من أوربا الى المستعمرات ، أو نقل العبيد والارقاء من مستعمرة الى مستعمرة ، أو نقل المتاجر وخيرات المستعمرات من جهة الى أخرى فى العالم ، أو نقل ما تنتجه مصانع الدولة المستعمرة لتباع بأغلى الاثمان فى اسواق المستعمرات

ويكفينا فى هذه المناسبة أن نذكر بعض تلك الشركات التى كان لها دور خاص فى تاريخ الاستعمار الأوربى الحديث ، ومنها الشركات الهولندية والانجليزية والفرنسية ، التىاشتغلت فى نقلالمهاجرين واستعمار الأراضى فى القارة الأمريكية ، ثم منها الشركات البريطانية التى استعمرت الهند ، وبلغ بعضها حدا من القوة والجاه مكن لها من أن نؤلف الجيوش ، وتنشىء الحكومات والادارت التى نشرت السلطان فى مختلف أرجاء الهند ، ومنها الشركات الهولندية والانجليزية التى عملت فى جزر الهند الشرقية ، فكانت تشتغل فى نقل منتجات تلك الجزر من التوابل والبهار وغيرها ، كماتشتغل فى نقل مصنوعات أوربا وبيعها للملايين الكثيرة المحتشدة فى جنوب آسيا وجنوبها الشرقى ، ومنها الشركات التى ألفها فى بعض الأحيان أفراد قلائل ، ومع ذلك نجحوا عن طريقها فى نشر السيطرة والسلطان فوق مساحات شاسعة من الأرض ، ومن هذه الشركات تلك التى ألفها الاستعمارى البريطانى المشهور سسل كرودس فى القرن التاسع عشر

فاستولى على مساحة تزيد على مائة الف كيلو متر مربع لاسيما فى المستعمرة التى عرفت بعد ذلك باسمه وهى مستعمرة « روديسيا » فى شرق افريقية ، ثم منها كذلك شركة الفها أحد ملوك غرب أوربا وهو الملك ليوبولد ، ملك البلجيكيين فى القرن الماضى ، الذى اراد ، أن يستعمر ، فلم يلجأ الى الطريقة التقليدية التى كان الحكام يلجأون اليها فى العصور القديمة ، فألف شركة سماها ، الاتحاد الدولى للاستكشاف ، ونشر الحضارة فى الكنغو ، وكأنه اراد أن يموه على نفسه وعلى الناس وعلى التاريخ كله ، فخلع على استعمار هذه الشركة لأراضى الكنغو البلجيكية الشاسعة صفة نشر الحضارة ، مع أن غرضها الاصلى لم يكن غير استعمار البلاد واستغلال مواردها فى أوسع نطاق .

تلك قصة الاستعمار الاوربى الحديث الذى وقفت من ورائه شعوب أوربا فاستحدثت من الوسائل ماجعل من الاستعمار وسيلة تطغى بها الشعوب على الشعوب ، وتسلط بها القوة الشعبية الهائلة فتصيب المستضعفين فى الأرض بما لا طاقة لهم به ، وتفرض عليهم من السلطان والجبروت ، مالاقبل لهم بدفعه ، ولم تلبث هذه الشركات جميعا أن اختفت بالتدريج ، لتحل محلها الحكومات الاستعمارية ، تلك التى أقامتها الشعوب فى غرب أوربا لتتخذ منها أداتها الفعالة ولتبنى عن طريقها مجدا اسسته الشركات الحرة ، ولكن استمراره وبقاؤه كانا يستلزمان أن ترعاه ، الحكومات الاوربية آخر الأمر ، بكل مالها من قوة وجاه وجبروت .

ولكن لقصة هذا الانتقال من مرحلة الشركات ، الى مرحلة الحكومات حديث آخر موعدى به معكم صفحة قادمة .

الرأسمالية والاستعمار

فى حديث سابق من هذه السلسلة تحدثت عن فلسفة الاستعمار الأوربى الحديث ، وبعض العوامل النفسية والأسس الأخلاقية التى تقع من وراء ظاهرة الاستعمار الأوربى والتى طبعت هذا الاستعمار بطابع معين ، تمثل فيما انطوى عليه هذا الاستعمار من استغلال للشعوب المستضعفة من من جهة ، وما انتهى اليه من تشاحن وبغضاء وحروب طاحنة بين الدول الاستعمارية من جهة أخرى .

واود فى هذا الحديث أن أعالج ناحية خاصة من نواحى هذه الفلسفة الاستعمارية الاوربية ومقوماتها ، هى ناحية الاقتصاد والمال ، وناحية الفوائد المادية التى تعود على الدول الاستعمارية وشعوبها من وراء توسيع رقعة ممتلكاتها ، وفتح الأسواق أمام متاجرها من جهة ، وأمام استغلال الفائض من رؤوس أموالها فى الشركات من جهة أخرى ، ذلك أن سياسة التوسع وضم المستعمرات والاستمساك بها فى صورة حمايات أو انتدابات أو وصايات أو معاهدات صداقة أو غير ذلك ... كل هذه الصور من الاستعمار لا ترجع فقط الى اشباع غريزة التوسع وحب الامتلاك عند القادة والسياسيين من بناة الامبراطوريات الأوربية الحديثة ... ولاترجع فقط الى حب العظمة والرغبة فى بناء الامجاد الوطنية أو تحقيق المجد الشخصى فى بعض الحالات ... وانما هى ترجع كذلك ، بل وقبل ذلك ، الى الرغبة الطبيعية فى تحقيق الكسب المادى ، عن طريق استغلال الموارد الطبيعية فى المستعمرات ، وتسخير القوى البشرية لدى سكان المستعمرات من أجل زيادة الانتاج وتوجيهه لخدمة الاقتصاد الوطنى فى بلاد

المستعمرين ، وكذلك فتح الأسواق للتجارة وانشاء الشركات التى يستخدم فيها رأس المال الفائض لدى ابناء البلاد التى تسعى الى الاستعمار

على أن قصة الترابط الوثيق بين الاستعمار وهذه الناحية الاقتصادية والمالية من حياة شعوب أوربا هى فى حقيقة الأمر أعقد كثيرا مما يبدو لأول وهلة ، فليس الأمر يقتصر على استغلال المستعمرات فى انتاج المواد الخام التى تغذى بها الصناعات فى أوربا ، كالقطن والزيوت والمطاط وغيرها ... وليس الأمر يقتصر على انتاج المواد الخام التى تحتاج اليها تغذية الملايين الكثيرة فى مدن أوربا العظيمة وفى عواصمها الكبرى التى لايقوم حولها من الأراضى الزراعية ما يكفى حاجاتها المتكاثرة ... ولا هو يقتصر على ايجاد الأسواق الفسيحة أمام مصنوعات أوربا بعد أن أصبحت المصانع الأوربية تنتج أضعاف أضعاف مايستهلكه سكان تلك القارة ... وانما الأمر أصبح يتصل اتصالا وثيقا بالرأسمالية الأوربية ، وماترتب عليها من نتائج بالنسبة لنظام الاقتصاد الاجتماعى الذى أخذ يسود أوربا ويغطى على حياتها ويحدد صلاتها بالقارات الأخرى رويدا رويدا خلال القرنين الأخيرين .

وتفصيل ذلك أن النظام الاقتصادى الذى أخذ يسود أوروبا لاسيما خلال القرن الماضى ، قد ترتب عليه زيادة غير متكافئة ولا متعادلة فى الدخل بالنسبة لمختلف طبقات المجتمع الأوربى ، فعمال الصناعات التى قامت فى أوربا ، وهم يمثلون الغالبية المطلقة من السكان ، لم يكونوا يحصلون من ثمرات الصناعات الحديثة على أكثر من أجورهم المحدودة . تلك الأجور التى كان تزايد السكان بين الطبقة العاملة يستنفدها كلها فى مواجهة مطالب الحياة الحديثة ، أما أغلب الكسب فكان يتركز فى أيدى طبقة محدودة من أصحاب الاعمال الذين كانت رؤوس الأموال تتجمع لديهم كلما دارت عجلة الصناعة ، وفى الوقت نفسه لم تكن الدولة تعرف من أسباب تحقيق الرفاهية الشعبية ما يجبرها على أن ترفع نسبة الضرائب التى تجمع من أصحاب رؤوس الأموال ، بحيث تنفق حصيلتها من أجل تحقيق الرفاهية الشعبية .

العامة ، وعلى هذا النحو انتهى نمو الصناعة فى أوربا الى سوء توزيع خطير فى ثمرات الصناعة ، والى ايجاد حالة من عدم التكافؤ بين غالبية تعمل فى الانتاج واقلية تتركز فى أيديها رؤوس الأموال وأرباحها التى لاتعرف كيف تنفقها ، لأن هذه الطبقة كانت بطبيعتها قليلة العـــدد ، كما أن النظـــام الاشتراكى فى القرن الماضى لم يكن قد تقدم إلى الحد الذى يجعل فى أموالها حقا معلوما للسائل والمحروم ، وعلى هذا النحو سعت الرأسمالية الأوربية الى ان تبحث عن اسواق تستثمر فيها رؤوس أموالها الفائضة ، ولم يكن بد من أن يكون ذلك فى أراضى المستعمرات ومناطق النفوذ خـــارج القـــارة الاوربية .

وهكذا شاءت سخرية القدر أن تجمع بين شعوب أوربا ، أو غالبيتهـــا . المطلقـــة وشعوب المستعمرات فى دائرة مفرغة من الاستغلال الاقتصـــادى والمـــالى فلما تقدمت الصـــناعة فى أوروبا ازدادت الغالبية من طبقـــاتها العـــاملة كدحا وعملا دون أن تجـــد من الأجـــر أو من رعاية الدولة ما يتـــكافأ وما تبذل من جهـــد أو ما يواجههـــا من التزامات ، وازدادت فئة قليلة من سكانها مالا ورزقا لاتستطيع أن تنفقه فى بلادها فتوجهـــه وجهة الاستغلال والاستثمار فى المستعمرات فيزداد بذلك النهم والجشـــع بين الدول الاستعمارية ، ويشتد التكالب بينها من أجل امتـــلاك أراضى المستعمرة وينتهى ذلك كله الى توسيع رقعة الأراضى المملوكة وازدياد عدد أولئك الذين تستغلهم أوربا من أبناء المستعمرات ، وكلما اتسعت رقعـــة الأراضى التى تملكها دولة من الدول الأوربية ، وكلمـــا ازداد عـــدد من تسخرهم من بنى البشر فيما وراء البحار ، كلما اشتد ساعد الصـــناعة فى أوربا ، وازداد تركيز رأس المال فى أيدى فئة قليلة من أبناء أوربا ، ودارت العجلة فى دائرتها المفرغة ، على نحو تشابكت فيه حياة شعوب أوربا بحياة شعوب ابناء المستعمرات ، وتمثلت سخرية القدر فى أن هذا الاســـتعمار الذى انتهى الى صورة بشعة من استغلال الأوربيين لأهل أفريقية وآســيا

وجزر البحار والمحيطات ، قد جر فى طريقه أيضا طائفة كبيرة من الطبقات العاملة فى أوربا فتردى بها الى هاوية الاستغلال ، وهكذا انطوى الاستعمار الى استغلال مزدوج لأهل المستعمرات وللطبقات العاملة فى أوربا تحقيقا لصالح فئة قليلة من سكان هذه القارة التى طلعت على العالم بصورة جديدة من الاستعمار ، لم تعرفها الانسانية من قبل فى تاريخها الطويل ·

على هذا النحو ، ينبغى أن نفهم فلسفة المال والاقتصاد فى سياسة الاستعمار الحديث ، وهى فلسفة كما رأينا أعمق كثيرا مما قد يبدو عند من لم يتعمقون الأمور ·


تطور سياسة الاستعمار الأوروبى الحديث

أود أن أعطى فكرة فى هذا الحديث عن سـياسة الاستعمار الأوربى الحديث بصفة عامة ، وتطور هذه السياسة خلال القرنين أو الثلاثة التى تحورت فيها هذه لسياسة وتطورت حتى أتخذت طابعها الذى انتهت اليه ، وشكلها الذى تميزت به فأثرت تأثيرها المعروف فى صلات الشعوب الغالبة بالشعوب المغلوبة ، واستغلالها اياها على النحو الذى قاس منه سكان أفريقية وآسيا بصفة خاصة .

ولقد بدأ الاستعمار الأوربى الحديث ، أول ما بدأ ، على أساس تجارى اذ ان شركات التجارة تألفت فى أوربا ، وخرجت من تلك القارة الى المستعمرات تبحث عن الخيرات فيها لتزود بها سكان أوربا المتكاثرين وصناعاتها لناشئة ، كما تبحث عن الأسواق لتصرف فيها منتجات الصناعة الأوربية ولتبيع سلعها بأغلى الأثمان ، ولكن هذه السياسة التجارية بدأت أول الأمر سياسة شعبية حرة ، اذ أن الحكومات الأوربية لم يكن لها فى ذلك الوقت سلطان علىتلكالشركات الاستعمارية ، ونما كان الأفراد فى أوربا يؤلفون شركاتهم على أساس النشاط الاقتصادى والمالى والتجارى الحر ، ويخرجون الى أراضى المستعمرات ليقيموا فيها ادارات حرة تعمل تحت اشراف الشركة ولا تتصل بالحكومة الأصلية فى أوربا الا اتصالا غير مباشر ، ومع ذلك فسرعان ما احست تلك الشركات الحرة بأنها لن تستطيع أن تستكمل أسباب الحماية لنشاطها فيما وراء البحار ، ولا أسباب الأمن لتجارتها عبر البحار ، ولا أسباب النظام والرخاء لوساطتها التجارية بين أراضى المستعمرات وشركات الصناعة فى الوطن الأوربى ... سرعان ما أحست تلك الشركا تالاستعمارية انها لن تستطيع أن تضمن لنفسها جميع

تلك المقومات الا اذا استندت الى الحكومة فالتمست منها الوقاية والحماية المادية والعسكرية ، كما التمست منها أيضا سند القانون وقوته فى سبيل تمكين أسباب النمو والازدهار لتجارتها فى الخارج والداخل ٠

وكما هو معروف فان رجال هذه الشركات والقائمين عليها من الاثرياء ورجال الأعمال سرعان ما استطاعوا أن يجدوا سبيلهم الى التأثير فى رجال الحكم فى البلاد الأوربية ، ذلك أنهم دعوهم فى كثير من الأحيان الى المساهمة فى شركات التجارة الاستعمارية ، وبذلك ربطوا بواسطة المصالح المادية بين هذه الشركات وبين نظام الحكم فى بلاد أوربا ٠ وهكذا انساقت الحكومات الأوربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكذلك فى مطلع هذا القرن العشرين ، الى أن أصبحت لها مصلحة مباشرة فى حماية شركات الاستعمار كما حدث فى الهند وفى جنوب شرق آسيا وكذلك فى شرق أفريقية وجنوبها ، وأصبحت الشركات الاستعمارية عميلا من عملاء الحكومة ، كما أصبحت الحكومات فى الوقت نفسه أداة تسخرها الشركات من أجل تحقيق مصالحها وحمايتها فى المستعمرات ، وبالتدريج ظهرت فكرة الامبراطوريات الاستعمارية بالمعنى الذى عرفناه عليها فى العهد الحديث ، وظهر عنصر جديد فى أفق الاستعمار ، اذ أنه الى جانب الشركات فقد برز فى القرن التاسع عشرعامل جديد تمثل فى آن طائفة من الشخصيات المغامرة ظهرت فى الأفق وخرجت الى لمستعمرات لتعمل تحت رعاية السلطة الحكومية ، فتنشر النفوذ والسلطان فى أراضى واسعة من أفريقية وآسيا ولتبنى مجدها الشخصى من جهة ، ومجدها القومى من جهة أخرى ، ولسوء الحظ كانت أفريقية بالذات المجال الخصب لهذا النوع من آلنشاط السياسى والعسكرى فظهر رجال من أمثال سيسل رودسى الذى يعتبر نشاطه رمزا لهذا النوع من المغامرة الاستعمارية ، فهو مغامر بريطانى سعى الى شرق أفريقية فنشر نطاق النفوذ البريطانى لاسيما فى المنطقة التى نسبت الى اسمه فعرفت فيما بعد باسم روديسيا ، ولقد تزعم سيسل رودسى هذه

الحركة التى رمت الى توسيع نطاق النفوذ البريطانى فى شرق أفريقية ،والتى عملت فى الوقت نفسه على أن تثبت فى روع البريطانيين أنفسهم أن الله قد عهد اليهم برسالة تحضير أفريقية ونشر النور فيها ، وبذلك ظهرت فى الأفق البريطانى فلسفة تقوم على المغالطة ، وسياسة تسعى الى ايهام البريطانى بأنهم حين يستعمرون أفريقية انما يؤدون رسالتهم بوصفهم احد الشعوب الراقية التى ستنقذ السود الافريقيين من هذه الجهالة والفقر والتاخير ، ولقد نجح سيسل رودسى وأمثاله من هؤلاء المخاطرين فى أن تطبع السياسة البريطانية الاستعمارية بطابعها الجديد ، كما نجحوا فى أن يعبئوا قوى الامبراطورية من خلفهم لتسعى للتوسع واطلاق النفوذ فى شرق أفريقية ، على أساس من المغالطة الواضحة ومن القوة الغاشمة التى انطوى عليها نشر النفوذ البريطانى فى شرق هذه القارة التى نكبها الاستعمار ٠

ومع ذلك فان الساسة من رجال الاستعمار فى حكومات غرب أوربا لم يلبثوا ان ادركوا أن ما تنطوى عليه سياسة المغامرين من أمثال سيسل رودسى وغردون وغيرهما من رجال الامبراطورية وبناتها ٠٠٠ هذه السياسة لايمكن أن تستقر وان تصبح سياسة دائمة الا اذا تبنتها الحكومات بصفة رسمية ، فأصبحت سياسة دائمة وثابتة تسير عليها الحكومة باطراد دون تغير او تحول مهما تغيرت أشخاص الحكام فى الدولة الأوربية ، وعلى هذا النحو ظهرت فى بلدان أوربا خلال هذا القرن العشرين سياسة جديدة اتسمت بأن الحكومات قد تولت بنفسها شئون المستعمرات فانشأت لها وزارات خاصة تسير على النهج الذى ترسمه الحكومة ، وتكون تصرفاتها وأعمالها باسم الدولة ووفقا لاهدافها لقومية العليا ٠ وهكذا بلغ الاستعمار قمته من الناحية السياسية ، فوقفت حكومات أوربا ودولها وجها لوجه مع شعوب المستعمرات فى أفريقية وآسيا ، ولم تعد هنـاك مداراة ولا مراءاة بعد أن تكشفت الأغراض الاستعمارية واتضحت اهداف الدول المستعمرة واضحة جلية ، وانتهت هذه المواجهة الصريحة الى أن ظهر الوعى بين شعوب

المستعمرات فنظرت أمامها ورأت مصدر الخطر ممثلا فى الحكومات الأوربية ذاتها ، بل رأت جوهر السياسة الاستعمارية بعد أن تبلور واتضح لكل ذى عينين ، ولم يكن هناك مفر بعد ذلك كله من أن تفيق شعوب المســتعمرات من سباتها ، وتهب من رقادها لتكافح متكتلة فى وجه هذا الاستعمار الأوربى الحديث .

ولكن لقصة هذا الكفاح وصلته بالسياسة الاستعمارية وتطوره خــلال الجيل الأخير حديثها الطويل ، بل احاديثها التى سنتطرق اليها نبــاعا فى هذه السلسلة .

تاريخ الاستعمار البريطاني في الهند

هذا الحديث ، والأحاديث التالية من هذه السلسلة ، ان انتقل الى عرض تاريخى للاستعمار الأوربى الحديث فى مجموعة من أقطار آسيا وافريقية • وابدأ اليوم بالاستعمار البريطانى فى الهند • وقد اخترت الهند فى مطلع هذا الاستعراض آلتاريخى لأكثر من سبب واحد ، فهى بلاد كبرى يصح أن تعتبر قارة فى حد ذاتها ، سواء من حيث المساحة أم من حيث عدد السكان ، وهى بلاد قاست من الاستعمار الأوربى الحديث ، والاستعمار البريطـــانى بالذات خلال قرنين أو ثلاثة ، وهى قد استطاعت آخر الأمر أن تتخلص من نير الاستعمار ، وتحاول الآن فى جهـــادها القوى المتصـــل أن تحتفظ باستقلالها الذى كسبته بعد جهد طويل وأن تبقى بمنـــأى عن تيـــارات السياسة الاستعمارية حتى لاتجرفها من جديد ، وحتى لاتشارك بطـــريق مباشر أو غير مباشر فى اثم التشــــاحن الدولى الذى كان ينتهى دائما بأن تكون الغلبة والكسب للأقوياء وأن يكون الغرم كله على الدول والبلاد التى تربط نفسها بعجلة الاستعمار والمستعمرين •

ولقد وصل الاستعمار الأوربى الحديث الى بلاد الهند ، أول ماوصل ، مع طلائع البرتغاليين الذين اكتشفوا طريق الملاحة حول رأس الرجاء الصالح ، ووصلوا الى لهند فأقاموا فيها قواعدهم التجارية وأخذوا يستغلون التجارة الهندية ولكنهم كانوا أصغر وأضعف من أن يستطيعوا التوغل الى داخليـــة البلاد ، وجاءت بعد ذلك شركات التجارة الاستعمارية من فرنسا وبريطانيا ولكن الشركات البريطانية كانت أقوى كثيرا من غيرها فاســـتطاعت أن تقيم لانفسها قواعد للتجارة والاستقرار على نقط متفرقة من سواحل الهنـــد ، بعضها على الساحل الغربى ، وبعضها الآخر على الساحل الشرقى والشمالى

الشرقى لشبه الجزيرة ، وتمكن البريطانيون بالتدريج من أن يحلوا محل البرتغاليين فىأهم المواقع ، كما نفذوا بتجارتهم نحو داخلية الهند سواء فى قسمها الجنوبى فى منطقة الدكن أم فى قسمها الشمالى على أطراف سهول هندوستان ، وأخذت بعض تلك الشركات التجارية تتوسع فى انشاء قواعدها ، وانشاء اساطيلها التجارية التى تعمل بين الهند وغرب أوربا ،كما أنها أقامت لأنفسها فوق أرض الهند نظاما اداريا معقدا ، بل وكونت الجيوش التى تعمل باسمها لتوسيع مناطق نفوذها فى داخلية الهند وفتح الأسواق وتأمين الطرق أمام عملاء تلك الشركات ، بل وفرض الاتفاقيات على امراء الولايات التى تنفذ اليها الشركات بقوتها وسلطانها ، ونفتح فيها الأسواق أمام المتاجر البريطانية ، كما تجمع منها خامات التجارة لتصديرها الى الخارج .

وبالتدريج استطاعت الشركات التجارية البريطانية أن تتوسع لا فى بلاد الهند وحدها ، وانما استطاعت كذلك أن تمتد بنفوذها الى الحكومة البريطانية فسيطرت على سياستها الخارجية ، ووجهت تلك السياسة فيما وراء البحار الى ما يخدم الأغراض الاستعمارية ويجعلمن الدولة البريطانية أداة طيعة فى خدمة النفوذ البريطانى الاستعمارى فى الهند ، وهكذا التقت جهود الشركات التجارية الاستعمارية فى الهند وجهود الحكومة البريطانية التى تبنت حركة الاستعمار ، وزودتها بالقوة والسند العسكرى . فخرجت بريطانيا فىعهد بناء الامبراطورية الهنديةلاسيما فىالقرن الماضى ، وإستطاعت ان تفرض نفوذها ، وان ترفع علمها البريطانى على رقعة لم تلبث أن اتسعت حتى شملت الهند كلها آخر الأمر .

ومن الطريف أن نتابع تطور السياسة الاستعمارية البريطانية فى الهند ، فالبريطانيون هناك قد لجأوا الى محاربة الطبقة الحاكمة أول الأمر حتى فرضوا عليها سلطان الامبراطورية وارغموها على الولاء للحاكمالبريطانى ، وبعدذلك عادوا فغيروا سياستهم فتقربوا الى الطبقة الحاكمة من امراء الهند وكسبوا

تحالفهم معهم على أساس ترك الحرية لاولئك الأمراء الهنود ليستغلوا شعوب ولاياتهم فى نظير ضمانهم للأمن فى تلك الولايات وللنفوذ البريطانى السياسى والعسكرى والتجارى فيها • وهكذا تطور موقف البريطانيين فأصبحوا يحكمون الهند بطريق غير مباشر ، وأصبحوا يسخرون طبقة من الهنود لتحكم غالبية السكان ، وبفضل هذه السياسة البريطانية استطاعت بريطانيا ، وهى الدولة التى لا يزيد سكانها على الأربعين أو الخمسين مليونا ، أن تحكم الهند وهى البلاد التى تزايد سكانها حتى كادوا يبلغون تحت الحكم البريطانى الاربعمائة من الملايين ، بل أن الشىء الطريف أن بريطانيا نجحت بفضل سياستها تلك فى أن تحكم الهند بمجموعة صغيرة جدا من الحكام البريطانيين الذين يعملون من وراء الستار يسندهم جيش لايزيد عدده على بضع عشرات الألوف من الجنود ، بل أنها استطاعت فى وقت من الأوقات أن تنشىء جيشا من الهنود انفسهم تحكم به تلك البلاد المترامية الاطراف ، واكتفت اذ ذاك بأن تجعل قيادة ذلك الجيش لفريق محدود نسبيا من الضباط البريطانيين

وهكذا تطور الاستعمار البريطانى فى الهند ، وهو استعمار تمثلت فيه مرونة السياسة البريطانية ، بل تمثل فيه التدرج فى التوسع ، فالبريطانيون دخلوا الهند من أبوابها المختلفة ، فى بمباى على الساحل الغربى وفى مدراس على الساحل الشرقى وفى كراتشى ومداخل السند فى الشمال الغربى ، وكلكتا ومداخل الجنج فى الشمال لشرقى ، وهم وان كانوا أمة بحرية فقد عرفوا كيف يستدرجون ولايات الهند ومقاطعاتها الى حكمهم بالتدريج ، فزحفوا نحو الداخل فى اناة ، ولكن فى اطراد ، وانتشر نفوذهم رويدا رويدا فى الهند وساعدهم على ذلك أن البلاد اذ ذاك كانت منقسمة الى عدد كبير من الولايات المستقلة بعضها عن بعض والتى يشاحن بعضها بعضا على الدوام ، كما كانت منقسمة فى تكوينها الشعبى الى مجموعات من الأقوام المختلفين فى الديانة والثقافة والاتجاه الروحى ــ وبذلك وجد المستعمرون أمامهم فى بلاد الهند مرتعا خصيبا لتطبيق القاعدة المعروفة « فرق تسد» واستطاع أولئك المستعمرون ان

أن يتغلبوا على ولايات الهند واحدة واحدة حتى نجحوا فى عام ١٨٥٧ أى منذ أقل من قرن أن يحطموا آخر دولة مستقلة كبرى فى شمال الهند وهى دولة المغول الاسلامية التى كان مقرها فى منطقة دلهى وهى قلب سهول الهندستان

ومع ذلك فان البريطانيين ، بحكم أنهم دولة بحرية تهتم بالتجارة ابلـــغ الاهتمام ، قد استمروا فترة من الزمن يحـــاولون أن يحكموا الهنـــد من سواحلها ،فاحتفظوا بالعاصمة فى كلكتا لأنهافريبة من مخارج الهندالبحرية فى خليج ابنغال . ولكن مشكلات الادارة والسيطرة العســكرية على الهنــد التى أصبحت لؤلؤة التاج البريطانى وكذلك مشكلات الدفاع عن الحـــدود الشمالية الغربية لهذه القارة الهنديه ، كل ذلك قد أضطر السلطة الحاكمة فى الهند الى أن تنتقل بمقر الحكم والادارة والسيطرة العسكرية الى دلهى عاصمة شمال الهند التقليدية ، وأصبحت تلك المدينة التى اتسعت كثيرا فى عهـــد الامبراطوريه الهندية ، هى مفتاح المواصلات الداخلية فى الهند كلها . ومن هناك حكم البريطانيون الهند ونشروا سلطانهم عليها حتى أضطروا آخر الأمر تحت ظروف قاهرة هى أكبر كثيرا من جبروت الاستعمار البريطـــانى أن يخرجوا من الهند ، وان يدعوها تنال استقلالها فى عام ١٩٤٧ .

ولكن قصة الاستعمار البريطانى فى الهند لاتكتمل الا اذا عرضنا لامرين آخرين هما كفاح الهنود من أجل استعادة استقلال بلادهم من جهة ثم ارتباط قصة الكفاح الهندى بكفاح الشعوب الأخرى التى جرت الى الاستعمار لأنها كانت فى طريق الهند من جهة أخرى

وموعدنا لهذا الكفاح حديثنا المقبل

الاستعمار على طريق الهند البحري

اتابع فى حديث اليوم ما بدأته من الكلام عن الاستعمار البريطانى فى بلاد الهند ، وهو الاستعمار الذى لم تقتصر آثاره واعقابه على تلك البلاد وحدها ، وانما أمتدت الى بلاد أخرى كثيرة على طول الطريق بين بريطانيا والهند ، والبريطانيون أمة بحرية ، وجدت طريقها الى الهند على طول البحار ، وكانت تعرف حق المعرفة أنها لن تستطيع أن تحتفظ بالهند ، لؤلؤة التاج البريطانى الا اذا ثبتت أقدامها فى نقطة حصينة على طول الطرق المؤدية الى الهند • وقد وصل البريطانيون ، أول ما وصلوا الى شواطىء الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وتلمسوا من ذلك العذر لتثبيت اقدامهم فى مستعمرات متباعدة على شواطىء افريقية فى الغرب والجنوب والشرق ، ولكنهم بعد ذلك مالبثوا أن عرفوا طريق مصر وقنال السويس ، ففطنوا الى أهمية هذا الطريق المختصر ، الذى يوفر عليهم آلاف الكيلو مترات فى الدوران حول القارة الأفريقية ، وعرفوا فوق ذلك أن لهذا الطريق المختصر أهمية عسكرية مزدوجة ، فالسيطرة عليه تيسر لهم السيطرة على الهند ، اذ يسهل نقل الجنود والعتاد فى فترة أقصر وبتكاليف أقل ، كما أن السيطرة عليه لها قيمة دفاعية ، لأنها تحول بين أية دولة أخرى وبين أن تجد سبيلها الى الهند أو تقطع الطريق على بريطانيا فى سبيل بلوغ غاياتها الاستعمارية فى جنوب آسيا •

لذلك كله فان بريطانيا فطنت الى أهمية الطريق الذى يمر فى البحر الأبيض المتوسط ثم البحر الأحمر فبحر العرب والمحيط الهندى ، وكان الانجليز بحكم طبيعتهم البحرية قد طمعوا قبل ذلك فى مواقع معينة قدروا قيمتها فاحتلوها لعلهم يفيدون منها فى يوم ما للسيطرة على طرق البحار ، ومن هذه المواقع جبل طارق ، وهو بقعة تقع عند مدخل البحر المتوسط

فاستولت عليها بريطانيا فى مطلع القرن الثامن عشر ، وأتخذت منها منذ ذلك الوقت نقطة ارتكاز بحرى تتحكم عن طريقها فى النقل البحرى والتجارة بين المحيط الأطلسى وداخلية البحر المتوسط ثم استولت بريطانيا بعدذلك على نقطة أخرى من نقط الارتكاز البحرى فى وسط البحر المتوسط هى جزيرة مالطة التى كان نابليون قد ادرك قيمتها فاستولى عليها فى طريقه الى مصر فى حملته المشهورة ولكن البريطانيين كانوا اقدر منه فى شئون البحر والسيطرة البحرية ، فاستولوا على الجزيرة وضموها الى مستعمراتهم فى عام ١٨١٤ • وبعد ذلك انتقل البريطانيون خطوة أخرى نحو الشرق على طول البحر المتوسط فعقدوا اتفاقية مع تركيا استولوا بمقتضاها على قبرص فى عام ١٨٧٨ • ولم يمض أربع سنوات على ذلك التاريخ حتى كانت جيوشهم قد احتلت مصر وهى القاعدة الكبرى التى تربط البحر المتوسط بالبحر الاحمر، وتتحكم تماما فى الطريق البحرى الذى شقت فيه قنال السويس لتربط مياه الشمال بمياه الجنوب •

وكان البريطانيون قبل ذلك قد سعوا لنشر نفوذهم وسيطرتهم على طريق البحر مبتدئين من الهند ومتجهين نحو الشمال أو الشمال الغربى ، ففى عام ١٨٣٩ وضعوا يدهم على نقطة ارتكاز بحرى هامة فى الجنوب ، وهى ميناء عدن التى تتحكم فى الاتصال بين بحر العرب والبحر الأحمر ، وفى الوقت نفسه أدرك البريطانيون أن هناك طريقا بحريا آخر يمتد من المحيط الهندى نحو الشمال على طول الخليج العربى الذى يعرف كذلك باسم الخليج الفارسى ، فعمد البريطانيون الى عقد اتفاقيات مختلفة من السلطنات والشياخات العربية الممتدة من مسقط وعمان الى رأس الخليج عند شط العرب ، وكانوا بذلك يرمون الى الاحتياط ضد أية قوة أوربية أخرى كالروسيا أو ألمانيا تحاول أن تنفذ الى طريق الهند البحرى من شرق أوربا والأناضول الى الخليج العربى •

بل أن الانجليز لم يكتفوا بالسيطرة على نقط الارتكاز التى أشرنا اليها على طول طريق الهند وانما أتخذوا هذه النقط أو بعضها مراكز لتوسيع نفوذهم

وسيطرتهم فى بلاد واسعة تقع على طريق الهند ، وجرفها تيار الاستعمار مع الأسف الشديد ، وكان سيطرة البريطانيين على الهند وطريقها قد جعلهم يستمرئون الفتح والتوسع ونشر السيطرة والنفوذ ، فوسعوا نطاق استعمارهم فى منطقة الشرق الأوسط كله ،وارتبطت سياستهم الاستعمارية فى الهند اوثق الارتباط وأقواه بسياستهم الاستعمارية فى غرب آسيا وشمال شرقى افريقيا ، ودخل الشرق الأوسط والهند جميعا فى دائرة الاستعمار الكبرى التى شملت الامبراطورية البريطانية ٠

ومن أهم النقط التى أتخذها البريطانيون قاعدة للتوسع مصر ذاتها ، فهم لم يمض على احتلالهم لها أكثر من خمسة عشر عاما حتى كانوا قد نفذوا الى قلب السودان وجنوبه ، ومنذ ذلك الوقت ارتبط الاستعمار البريطانى فى مصر بالاستعمار البريطانى فى السودان أشد الترابط وأقواه ، وكذلك انتشر البريطانيون من مصر نحو الشرق ، فدخلوا فلسطين وشمال بلاد العرب واتصلت قواتهم هناك بقواتهم المتوغلة من الجنوب على طول الخليج العربى حتى احتلت جيوشهم سهول العراق من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال ٠

كذلك أتخذ البريطانيون نقطة أخرى قاعدة للتوسع الاستعمارى هى ميناء عدن ، فمن هناك وسعوا نفوذهم فى اتجاهين ، احدهما نحو داخلية جنوب بلاد العرب ، حيث بلغوا حدود اليمن ،بل وحاولوا ابتلاعها لولا صعوبة تلك البلاد الجبلية وفطنة أهلها فى الدفاع عن بلادهم ، كذلك انتشر الانجليز من عدن نحو الشرق الى وادى حضرموت واحتلوا ما اطلقوا عليه اسم المحميات التسع ، وأصبحوا يسيطرون دون منازع على الساحل الجنوبى كله للجزيرة العربية ، أما الاتجاه الثانى الذى انتشروا فيه من عدن فهو ساحل الصومال المقابل للسواحل العربية ، وهناك سيطر البريطانيون على منطقة صحراوية فى حد ذاتها ، ولكنها تعتبر ذات قيمة عسكرية كبرى بالنسبة للسيطرة على مداخل البحر الأحمر من الجنوب ٠

وهناك منطقة ثالثة على طول طريق الهند أتخذها البريطانيون أيضا قاعدة

لتوسيع النفوذ وتمكين السلطان ، تلك هى السواحل الجنوبية الشرقية لبلاد العرب ، في مسقط وسواحل عمان والبحرين ، فمن هناك سيطر البريطانيون على الخليج العربى كله ، ومدوا نفوذهم وسيطرتهم الكاملة على العراق ، كما نشروا نفوذهم الاقتصادى والسياسى على السواحل الجنوبية الغربية لايران ، حيث حصلوا على امتياز البترول واقتسموا النفوذ فى تلك البلاد بينهم وبين روسيا القيصرية منذ عام ١٩٠٧ ٠

وعلى هذا النحو ، نستطيع أن نتبين كيف أن الاستعمار البريطـــانى فى الهند لم يقف عند تلك البلاد ، وانما أمتد منها بشعابه ومخالبه نحو الشرق الأوسط ، كما أمتد على طول الطريق البحرى ، وجر فى طريقه بلادا وقواعد كثيرة ، وكان مثالا واضـــحا للترابط الوثيق بين المصالح الاســـتعمارية الامبراطورية على طول طرق البحار ٠

كفاح الهند ضد الاستعمار

صفحة اليوم من تاريخ التحرير تتصل بالهند وجهادها العظيم من أجل تخليص نفسها من ربقة الحكم الأجنبى الذى فرض عليها كنتيجة لتوسع بريطانيا الى ما وراء البحار ، وهذه الصفحة من تاريخ الهند وكفاح الشعب الهندى ، هى صفحة تستحق منا انعام النظر ، لأنها صفحة تتصل بجهات شعب بأكمله فى ظروف لم يكن ليثمر معها الجهاد لولا ما صاحبه من ايمان عميق من جانب الشعب وقادته بحقهم فى الحياة وفى الحرية ٠

فقد دخلت بريطانيا أول ما دخلت الى بلاد الهند الواسعة عن طريق مداخلها البحرية المختلفة ، ووجدت سبيلها بالتدريج الى توسيع نفوذها وفرض نظام الحكم البريطانى على داخلية البلاد ، وقام هذا النظام ذاته على أساس الحيلولة بين الروح الشعبية وبين أن تنطلق فى سبيل مغالبة القوة المتوغلة ، كما قام أيضا على مكافحة كل الوسائل التى يصح أن تؤدى الى نهضة شعبية متكاملة تنظم نفسها آخر الأمر لتستعيد سيادة البلاد ، وكان البريطانيون يعرفون أن هناك عددا من العناصر يصح أن تلتف من حولها زعامة البلاد الشعبية ، فعملوا منذ اللحظة الأولى لاحتلالهم الهند على تشتيت هذه العناصر أو شرائها بمختلف الوسائل ليتخذوا منها عونا على الشعب الهندى فى كفاحه ، وكانت هناك طبقة الحكام الأصليين للبلاد من بقايا الدولة المغولية فى شمال الهند ، أو من خلفاء الحكام والمهراجات فى ولايات الهند الوسطى والجنوبية ، فقام نظام الحكم البريطانى فى الهند على أساس الاستفادة من هذه العناصر وتسخيرها لتحقيق مصالح الحكم الامبراطورى فى البلاد ، فاطلقت بريطانيا يد هؤلاء الحكام المحليين لتحقيق مصالحهم الفردية ومصالح أسراتهم الحاكمة ، ولو كان ذلك على حساب الطبقات الفقيرة من الشعب.

الهندى ، وكل ما اشترطته الحكومة الامبراطورية هو أن يحتفظ أولئك الحكام بولائهم لملك بريطانيا الذى أصبح أمبراطورا للهند ، رمزا لسلطان التاج البريطانى على هذه البلاد الواسعة ، وبالتدريج تركت بريطانيا الحبل لؤلئك الحكام المحليين حتى أصبحوا عالة على الحياة الهندية ، كما أدى انتشار سلطانهم الى اختلال خطير فى الحياة الاجتماعية للشعب الهندى الذى انقلب الى غالبية ساحقة كادحة من أجل تحقيق الرفاهية المادية لفئة محدودة من رجال الحكم والاقطاع ، ولم يحاول الاحتلال البريطانى بالطبع أن يعالج هذه الناحية التى قسمت الهند على نفسها وجعلت من زعامة الحكام الهنود مصدرا للطغيان والظلم الاجتماعى ، وانتهى ذلك الى انقسام الأمة الهندية الى حاكمين ومحكومين تتنافر المصالح فيما بينهم ، كما انتهى الى ربط فئة الحاكمين بعجلة بريطانيا التى عرفت دائما كيف تستغل ضعف الحكام وعدم استنادهم الى القوة الشعبية ، وكيف تستفيد من تطبيق سياستها المعروفة « فرق تسد »

وهكذا سلك الحكم البريطانى فى الهند سبيله وعرف كيف يقطع خط الرجعة على الحكام الهنود ويحول بينهم وبين أن يتزعموا حركة المقاومة والكفاح الشعبى ٠

وكانت هناك فئة أخرى من الأمة الهندية يصح أن تتزعم حركة الكفاح ، ولكن الحكم الأجنبى عرف أيضا كيف يحول بينها وبين أن تتزعم تلك الحركة وتلك الفئة هى الجيش ، ذلك أن بريطانيا سلكت فى الهند سبيلا واضحة فيما يختص بالقوات المحاربة الهندية ، فهى قد احتفظت بالقيادة دائما لضباط من البريطانيين ، وهى قد قسمت الجيش الهندى فى ذلك العهد الى شيع بحسب الديانات السائدة فى الهند ، واستغلت الاختلافات الدينية كما استغلت رجال الجيش وفصائله فى فرض الحكم الأجنبى على مختلف جهات الهند ، فكانت وظيفة الجيش الهندى اذ ذاك هى وظيفة بوليسية فى داخلية الهند وفى مناطق حدودها ، وذلك فى حد ذاته أوجد شيئا من الحزازة بين رجال الجيش وبين رجال القبائل فى كثير من جهات الهند ، ونظر الشعب فى

كثير من الحالات الى القوات المسلحة على أنها سلاح فى يد السادة البريطانيين بل أن سياسة بريطانيا فى الهند قامت على أساس عدم اســـــتخدام الجيش كجيش بالمعنى الصحيح الا فى الحملات الامبراطورية خارج بلاد الهند ذاتها فكانت الامبراطورية تستخدم المجندين الهنود فى مواقعها المختلفة فيما وراء البحار وعلى هذا النحو نجح الحكم البريطانى فى الهند فى أنه حال بين الجيش وبين أن يصبح نواة تتبلور من حولها صورة الكفاح الهندى القومى من أجل التحرر والاستقلال ٠

ومع ذلك فان التجاء الحكومة البريطانية فى الهنـــد الى تحطيم الزعامة عن طريق الحكام الهنود أو عن طريق الجيش الهنـــدى لم تنجح فى قطـــع السبيل تماما على شعب الهند الذى لجأ الى طريق لم يستطع التحرير أن يسده فبدأ الــكفاح فى ميدان الزعامة الشعبية التى قام على رأسها طائفـــة من المفكرين الشعبيين ، ومنهم فئـــة من الفلاسفة وذوى الرأى بين الهنـــود من مختلف الطوائف والنحل فى الهند ، ومنهم طائفة من المحامين العاملين فى الميدان الحر ، ومنهم طائفة من المفكرين السياسيين والمثقفين الذين نجحوا فى بعث الوعى القومى بين اعداد متكاثرة من المثقفين الهنود ، كما نجحوا أيضـا فى نشر روح المقاومة الشعبية بين الطبقات المغلوبة من الشعب الهنـــدى ، ووفقت الهند فى هذه الناحية توفيقا كبيرا ، فظهرفيها من الفلاسفة والزعماء الشعبيين أمثال غاندى بين الهندوك ومحمد على جناح بين المسلمين ، وأمثال طائفة أخرى كبيرة من الزعماء الذين كتب لهم الظهور أو الذين فضـــلوا أن يعملوا فى صمت كجنود مجهولين ، واستطاعت هذه الزعامة الشــعبية التى لم تربط نفسها فى يوم من الأيام ، لا بالحكام المحليين من امراء الهنـــد ، ولا بالحكام البريطانيين من السادة الفعليين للبلاد ٠٠٠ استطاعت هذه الفئة من زعماء الشعب الهندى أن تحمل مشعل المقاومة فى كل مكان ، وأن تبعث فى الشعب الهندى روح الكفاح ، وان تبنى هذا الكفاح على أساس الايمان بقوة

الحق ، وبأن هذا الحق لابد أن يغلب آخر الأمر مادامت نفوس الكافحين عامرة بالايمان .

وكان طبيعيا لمثل هذا الكفاح الشعبى أن يطول ، وان كان زعماء الهند قد أدركوا منذ أول الأمر أن الهند وهى تشمل مئات الملايين من السكان هى قارة بأسرها ، وأن سياسة العصيان المدنى وعدم التعاون التى رسمتها فلسفة غاندى فى المقاومة ، هى سياسة لابد أن تنجح آخر الأمر ، لأن بريطانيا ان كانت تستطيع أن تفرض سلطانها بالقوة ، فانها لن تستطيع ، مهما أوتيت من الجبروت ، أن تفرض على الشعب الهندى أن يتعاون معها .

وهكذا انقلبت المقاومة السلبية وعدم التعاون مع الحكم البريطانى الى مصدر خطير من مصادر القوة الشعبية أرهب بريطانيا وجعلها تحس آخر الأمر ان بقاءها فى القارة الهندية لن يحقق لها ما ترجوه من فائدة من استثمار الهند . بل جعلها تحس أن الخير كل الخير انما هو فى تسوية مشكلتها مع الهند فى سلام ، والخروج منها لعلها بذلك تبقى على شىء من صداقة الهنود ، ومن صلاتها التجارية المربحة مع القارة الهندية .

هذه هى الخطوط العريضة لقصة الكفاح الشعبى فى الهند من أجل التحرير ، وهى قصة نخرج منها بعبرتين ، العبرة الأولى هى أن الايمان أساس كل قوة فى سبيل الكفاح الشعبى ، والعبرة الثانية هى أن الحكم الأجنبى مهما طال فانه لن يستطيع فى يوم من الأيام أن يغلب حيوية الشعب ، فالايمان والقوة الشعبية هما جوهر الحياة ، ولقد استطاع الحكم البريطانى فى الهند أن يطغى على مظاهر الحضارة الهندية ، ولكنه لم يستطع أن ينال شيئا من جوهر الحياة فى بلاد الهند الخالدة .

تحرير إندونيسيا السياسى

حديثى فى صفحة اليوم من صفحات التحرير ، يتناول بلادا اسلاميه عزيزة علينا هى جمهورية اندونيسيا ، وهى البلاد التى قاومت الحكم الاجنبى خلال أربعة قرون ، ولكنها استطاعت بصبرها ومثابرتها ، وبحيويتها الشعبية الباقية على الزمن ان تخلص نفسها آخر الأمر ، وان تنال استقلالها وحريتها وأن تتبوأ المكان اللائق بها بين مجموعة الأمم ٠

وللكفاح الشعبى فى اندونيسيا تاريخ طويل ، ولكننا لن نستطيع ان نتفهمه الا اذا رجعنا الى الوراء حين بدأت السيطرة الاوربية تنشر فى مختلف ارجاء جنوب القارة الآسيوية وجنوبها الشرقى ، وقد كانت بلاد اندونيسيا تحتل دائما موقعا فريدا فى الركن الجنوبى الشرقى من آسيا ، عند النقطة التى تدور فيها طرق المواصلات البحرية من جنوب آسيا نحوا لشمال فى اتجاه بلاد الصين واليابان ، كما كانت هذه الجزر التى تعد بالالوف تشغل فضاء البحر الواقع بين آسيا وقارة استراليا ، لذلك فقد كانت اندونيسيا مطمحا للغزاه والمخاطرين من رجال البحار ، الساعين لفرض سيطرتهم البحرية عى طرق الملاحة والتجارة ، كما أن ثروة جزر الهند الشرقية فى التوابل ومنتجات المناطق الحارة كانت عاملا اساسيا فى اجتذاب المخاطرين من تجار آوربا البحرية ، وعندما توسع لابرتغاليون من بلادهم نحو الشرق ، وداروا حول افريقية حتى بلغوا بلاد الهند ، امتد توسعهم البحرى الى جزر الهند الشرقية فاستقروا بها قبل منتصف القرن السادس عشر ، ولكن سيطرةا لبرتغاليين على تلك الجزر جاءت فى أواخر عهد قوتهم ، وكان البريطانيون والهولنديون قد بدءوا ينازعونهم السيطرة والسلطان على بحار الشرق البعيدة،فلم يبلغ القرن

السادس عشر نهايته حتى كان ملاحو بريطانيا وهولنـدا قـد حلوا محـل البرتغاليين تماما فى جزر الهند الشرقية ، وبدأ عهد قصير من الاضطراع بين الهولنـديين والبريطانيين فى أحـكام السيطرة على تلك الجزر ، ولـكن بريطانيا كانت مشغولة فى ذلك الوقت بتمكن سيطرتها على بلاد الهنـــد الواسعة ، فلم تستطع ان تفرغ لمغالبة الهولنديين فى جزر الهند الشرقية وانتهى الأمر بأن انفردت هولندا وشريكاتها البحرية والتجارية اذ ذاك بالعدد الأكبر من جزر الهند الشرقية ، ولم يترك لبريطانيا غـير جزء من جزيرة بورنيو الى جانب شبه جزيرة الملايو .

وكان الهولنديون قد انشأوا فى عام ١٩٠٢ شركتهم المعروفة بالهنـد الشرقية وأخـذت تلك الشركة توسع نفوذها تدريجيـا فى جزر الهنـد الشرقية حتى عمت سيطرتها تلك الجزر واستمرت تحكمها خـلال عامين حتى حلت حكومة هولندا ذاتها محل الشركة واستمرت تحكم جزر الهند الشرقية كمستعمرة للتاج الهولنـدى خلال الفترة الواقعة من عام ١٨١٦ الى قيام الحرب العالمية الثانية .

وفى هذه الفترة سعت حكومة هولندا لتمكن لنفسها من حكم جزر الهند الشرقية حكما مستقرا ، ولـكن انتشار التعليم وظهور الحركات القوميـة المختلفة فى جنوب آسيا وشرقها ، وكفاح الشعوب فى بلاد الهند والصين والهند الصينية وغيرها من أجل تحرير نفسها واسـتعادة حريتهـا واستقلالها ... كل ذلك كان له أثره الفعال والقوى فى سكان جزر الهند الشرقية ، فبدأت حركات النهوض القومى تنبعث من اجزاء مختلفـة من تلك الجزر ، لا سيما جزيرة جاوة وجزيرة سومطرة ، حتى جاءت الفرصة المواتية فى الحرب العالمية الثانية .

ولعلنا نذكر كيف جاءت هذه الحرب العالمية الثانية فغيرت الاوضاع فى جنوب آسيا وشرقها تغييرا واضحا ، فتقدمت قوات اليابان البحرية فى حركة توسع خاطفة بلغت بها جزر اندونيسيا واستقرت فى تلك الجزر ،

الى جانب استقرارها فى بلاد الفيلبين والملايو واجزاء من الهند الصينية ، وكان هذا التوسع اليابانى الخاطف فرصة طيبة كشفت لشعوب جنوب شرق آسيا عن ضعف دول أوربا التى كانت تسيطر اذاك على هذا القسم من بلاد الشرق البعيدة وأدرك سكان اندونيسيا وجزرها المترامية الاطراف كيف أن بلاد هولندا التى تدعى لنفسها السيادة على تلك الجزر لا تستطيع ان تدافع عنها اذا ماجد الجد ، وكيف انه اذا لم يهب شعب اندونيسيا ذاته ليدافع عن نفسه بنفسه ، فانه سيبقى دائما مطمعا لكل طامع ، سواء أتى من بلاد الغرب وأوربا ، أم أتى من بلاد الشرق كما جاءت قوات اليابان .

وهنا هب شعب أندونيسيا وأخذ ينظم قواته ويرتب صفوفه ، ثم عقد النية على ألا يستبدل حاكما أجنبيا بحاكم أجنبى آخر ، وكان قادة اندونيسيا حكماء غاية الحكمة حين صمموا ألا يرضوا بأن تستمر السيطرة اليابانية ، فرتبوا أمورهم على أساس أن يحلوا هم محل اليابانيين فى السيطرة على هذه الجزر الكثيرة والمنتشرة فى أول فرصة تسنح لانسحاب اليابانيين .

وجاءت هزيمة اليابان فى عام ١٩٤٥ ، فهب شعب اندونيسيا كله ووضع يده على أسلحة الجيش اليابانى المنسحب ، ووقف وقفة قوية لم تستطع أمامها دولة هولندا حين حاولت ان تسترد سلطانها ، ان تقف فى وجه هذه القوة الشعبية المسلحة ، واضطرت هولندا آخر الأمر الى أن تقبل الصلح مع سكان اندونيسيا الثائرين والى أن تعقد اتفاقية وقعت فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٩ انتقلت بها السيادة على هذه الجزر من دولة هولندا الى الولايات المتحدة الاندونيسية .

هذه قصة الكفاح السياسى الحديث لجمهورية اندونيسيا ، ولكن لهذه القصة بقية تتصل بالكفاح الاقتصادى لاعادة بناء الحياة القومية فى هذه الجمهورية الفتية . وموعدنا لهذا الجانب من قصة التحرير الاندونيسى حديثنا القادم .

تحرير إندونيسيا

تحدثت فى المرة السابقة عن الصفحات الاولى من تاريخ كفاح شـــعب اندونيسيا فى سبيل الاحتفاظ بحيويته واستعادة حريته واستقلاله بعد أن طغى عليه الحكم الأجنبى خلال ثلاثة قرون أو مايزيد

واود اليوم أن استعرض معكم تلك الصفحة المجيدة من هذا الكفاح خلال العشرين سنة الأخيرة ، لاسيما الفترة التى انقضت منذ أن نالت تلك البلاد العزيزة استقلالها فى آخر عام ١٩٤٩ . هى صفحة انطوت على جهـاد عظيم انتقل بالشعب الاندونيسى من وهدة الانحلال التى تردى فيها الى طـريق المجد والنهوض ، وخرج به من ظلمة الماضى الى ضياء الحاضر ونور المستقبل المرموق .

وقد تكون خير سبيل لنقدر جهاد اخواننا المكافحين من أجل اعادة بنـاء الوطن الاندونيسى أن نستعرض بعض ما انتهى اليه الحكم الأجنبى الهولندى فى جزر الهند الشرقية خلال الخمسين سنة التى سـبقت الحصول عـلى الاستقلال ، فذلك أدعى الى أن نتبين كيف وفق أبناء اندونيسيا فى اصلاح آثار الماضى وكيف بعثوا روح النهضة فى مختلف نواحى حياة الشـعب الاندونيسى . ففى الميدان الاقتصادى كا نالحـكم الهولندى قد اتجـه باندونيسيا نحو تسخير موارد جزر هذا الارخبيل المترامى الأطراف لخدمة الانتاج الهولندى . والارتفاع بمستوى حياة الهولنديين فى أوربا ، بل أن موارد الثروة الزراعية الفتية فى اندونيسيا وجهت نحو انتـاج المواد التى تصدر للاستهلاك فى أوروبا والتى توفر الخامات اللازمة للصناعة فى سولندا أما المواد التى تستهلك محليا وترتفع بمستوى حياة الفلاحين ورفاهينهـم فلم ينلها غير نصيب محدود من العناية .

وكذلك الحال فى ميدان التعدين والصناعة ، فان الموارد المعدنية كالبترول والقصدير وغيرها من ثروة باطن الأرض فى اندونيسيا كانت كلها تصدر الى الخارج بدلا من أن تستخدم فى اقامة الصناعات المحلية والارتقاء بمستوى الانتاج الصناعى فى مدن اندونيسيا ذاتها ٠

أما عن الناحية الثقافية والتعليمية فى جزر اندونيسيا فان الحكم الأجنبى أهملها اهمالا لانظير له ، فعندما انتهى الحكم الهولندى فى اندونيسيا من الناحية الفعلية اثناء الحرب العالمية الثانية ، لم تكن نسبة التعليم بين أبناء اندونيسيا تزيد على الأربعة فى المائة ، وهى نسبة ضئيلة جدا اذا ماتذكرنا ان الهولنديين كانوا قد أمضوا فى جزر الهند الشرقية ثلاثة قرون ونصف قرن ، وفى الوقت ذاته كانت عناية الحكام الاجانب منصرفة عن التعليم الشعبى والتربية القومية ، بل ان لغة البلاد ذاتها أهملت اهمالا واضحا ، وانحصر التعليم أو كاد ينحصر فى اللغة الهولندية ، وأصبحت لغة البلاد الأصلية تكتب بالأحرف اللاتينية بعد ان عفى الزمن على الابجدية الاندونيسية وعمل الحكام الاجانب على أن يحولوا بين الكتابة العربية وبين ان تنتشر بين المسلمين من ابناء اندونيسيا ٠

على هذا النحو وجد قادة اندونيسيا حالة بلادهم وشعبهم وقت أن دالت دولة الهولنديين وغزت اليابان جزر الهند الشرقية أبان الحرب العالمية الثانية ، وكان قادة اندونيسيا وزعماؤها قد صمموا العزم على ألا يستبدلوا اجنبيا بأجنبى آخر ، ووطدوا العزيمة على ان يتخلصوا من الحكم الأجنبى أيا كان مصدره ، وقد دانت لهم الأمور بفضل ايمانهم الراسخ بحقهم فى الحياة الحرة الكريمة ، ولكنهم ادركوا منذ اللحظة الأولى أن الاستقلال لايكفى فيه أن ينال أو يتحقق من الناحية السياسية الرسمية ، وانما ينبغى أن يقوم صرح الحياة القومية على أساس العمل الدائب المستمر فى سبيل تدعيم الاستقلال وصيانته بل ان زعماء اندونيسيا ادركوا منذ اليوم

الاول الذى انكسرت فيه شوكة هولندا أن الاستقلال السياسى لبلادهم قد أصبح امرا مفروغا منه ، ولكن الجهاد الأكبر انما سيكون من أجل العمـــل فى سبيل دعم هذا الاستقلال وارساء قواعده على أســـاس متين ، وهم قد عرفوا ان اندونيسيا التى يزيد سكانها على الخمسة والســـبعين من ملايين الأنفس تحتاج آلى زيادة الانتاج الزراعى والصناعى فيها لتستطيع هـــذه الملايين الكثيرة أن تجد نصيبها من الحياة والرفاهية المادية ،وقد أدرك أولئك الزعماء بحق أن الزراعة وان كانت تمثل العنصر الأساسى فى الانتاج ، كما أنها تمثل أكثر من ثمانين فى المائة من صادرات البلاد ، فان النهضـــــة الاقتصادية القومية لا يمكن أن تكتمل الا اذا ارتكزت آلى جانب الزراعة مع نهضـــة صـــناعية تضيف بانتاجها الى الدخل القومى اضـــافة ملموســـة ، وبالفعل عمل أبناء اندونيسيا على زيادة استغلال ثروتهم المعـــدنية بحيث أصبح آلبترول فى عام ١٩٥١ يمثل أكثر من ١٣ ٪ من الصادرات وارتفع تصدير القصدير الى ٧ ٠/٠ ووضع برنامـــج لتنمية الصـــناعات واعادة تنظيمها على أساس جديد ، وازدهرت الصناعات الناشئة فى اندونيســـيا لأنها وجدت أمامها سوقا فسيحة لتصريف منتجاتها بعد ان كانت هـــذه السوق الوطنية احتكاراً لمنتجات هولندا وأوربا ٠

أما فى ميدان التربية والثقافة فان الحكومة الوطنية والهيئات الشـعبية فى جمهورية اندونيسيا قد بذلت مجهوداً جبارا انتهى الى نتائج باهرة فى سبيل الارتقاء بمستوى التعليم فى هذه الجمهورية الناشئة ، ويـــكفى أن نذكر أن نسبة الملمين بالقراءة والكتابة قد تضاعفت آكثر من ثمـــان مرات خلال أقل من عشرسنوات من الحكم الوطنى٠٠٠ يكفى أن نذكر ذلكلنتصور الجهود الجبارة التى بذلها أبناء اندونيسيا فى سبيل نشر التربيـة والتعليم والثقافة بين شعبهم الذى حرمه الحـــــكم الأجنبى نعمة العلم والنـــور والثقافة ٠

هذه صورة مجملة لبعض نواحى النهضة المعاصرة فى اندونيسيا ، وهى صورة تطلعنا على جانب من جوانب نهضة الشعوب المكافحة من أجل الاستقلال والتحرر ، وليس من شك عندنا فى أن شعوب آسيا وافريقية ومن بينها شعب اندونيسيا الناهض ستعرف كيف تبنى بجهودها الجبارة الموفقة صرح مجدها وعظمتها فيما نحن مقبلون عليه من أيام ٠

تحرير شعب الصين

كان حديثى فى المرة السابقة عن الصفحة المعاصرة من صفحات تاريــــخ تحرير الشعب الاندونيسى ، وأود أن انتقل الى قصة شعب آخر من انبــل شعوب آسيا واعرقها فى الحضارة والمدنية هو الشعب الصــينى ولهـــذا الشعب الكبير فى كفاحه من أجل التحرر فى العهد الحديث قصة طـــويلة ترجع أصولها الى احتكاكه الأول بالعناصرالأوربية ، التى بدأت تتوسع من أوربا فى عهد البرتغاليين والهولنديين ، ثم انتقلت السلطة والسـيطرة الى أيدى البريطانيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، عندما دق أولئك الأوربيون أبواب الصين فى شدة وعنف ، وهبت بلاد الصين القـديمة من رقادها لتقاوم الأجنبى الدخيل ، ولتحاول أن تحتفظ بكيانها فى وجـــــه التوسع الأجنبى ، ولكن الشعب الصينى فى كفاحه ضد التدخل الأجنبى تعثر للأسف الشديد خلال قرنين كاملين ، وتألبت عليه العناصر الأجنبية من أوربا ومن اليابان المجاورة على نحو أعطى قصة الكفاح الصينى من أجل التحرر طرافة ابرزتها بين قصص الكفاح الشعبى فى العهد الحــــديث مما سأحاول أن استعرضه معكم فى حديث اليوم والحديثين المقبلين من هـــذه السلسلة ان شاء الله .

والصين كما نعلم بلاد عريقة فى المدنية ، ترجع حضارتها الى بضعة آلاف من السنين ، كما ان المدنية الصينية امتازت بأنها مدنية متصلة على الزمن، فشعب الصين قداحتفظ بمعالم مدنيته الأساسية خلال هذهالآلاف المتعاقبة من السنين ، رغم ما اعترى حياته من خطوب ، وما تعرضـــت له بلاده من طغيان أجنبى ، وبلاد الصين بلاد فسيحة تبلغ مساحتها مثل مساحة القارة

الأوربية كلها أو تزيد ، كما يبلغ سكانها اليوم ستمائة مليون نسمة ، أى أنهم يكادون يبلغون ربع سكان العالم كله ، ولعل هذا الاتساع الشاسع فى المساحة ، والضخامة الكبرى فى عدد السكان قد أديا الى احتفاظ الصين بكيانها القائم رغم ما تعرضت له البلاد والشعب الصينى من خطوب ، فلم يكن غريبا أن تحتفظ الصين باستقلالها ، أو أن تسترد هذا الاستقلال اذا ما فقدته فى بعض أطرافها بين وقت وآخر ، أمام توغل قوة أجنبية دخيلة بل لعل اتساع المساحة وضخامة الموارد وعدد السكان هى التى تجعلنا نحسب للصين حسابا خاصا بين مجموعة الشعوب والأمم فى العالم الحديث وتجعل من يدرسون الحضارة البشرية المعاصرة ينتظرون لهذه البلاد وشعبها أن تقوم بدور هام فى حياة العالم وصلاته الدولية فى المستقبل.

وأود أن أخصص حديثى اليوم لصفحة خاصة من صفحات الجهاد الصينى من أجل التحرر من السيطرة الأجنبية ، وهى صفحة تتصل بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، عندما بدأت بريطانيا يتسع نفوذها التجارى والاقتصادى فى شرق آسيا ، وتحل تدريجيا محل البرتغاليين والهولنديين استغلال أسواق الصين ، وفى ذلك الوقت كان التوسع التجارى البريطانى فى الهند وجنوب آسيا يتركز فى يد شركة الهند الشرقية ، التى أخذت اذ ذاك تستغل أسواق بلاد الصين ولسوء الحظ كان من بين منتجات الهند مادة فتاكة هى مادة الأفيون ، وكان تجار بريطانيا اذ ذاك يدركون خطورة الاتجار فى مثل هذه المادة المخدرة والتى تنهك العافية والعقل وتميت الشعور عند من يتعاطاها ، ولكن أولئك التجار كانوا فى الوقت نفسه يطمعون فى الأرباح الطائلة التى تدرها عليهم تجارة الأفيون ، وكان طبيعيا مع الأسف ، أن تتغلب المصلحة المادية على العاطفة الانسانية ، تسعى تجار شركة الهند البريطانية لأن يهربوا تجار الأفيون وتعاطيه بين الملايين من من سكان بلاد الصين ، وأدركت حكومة الصين هذا الخطر الذى يتهدد حياة الشعب فى الصميم ، فحرمت الاتجار فى هذه المادة السامة وحاولت بكل

ما أوتيت من قوة أن تحول بين التجار البريطانيين وبين الشعب الصيني الذى أغراه ضعفه وجهله لتعاطى هذه المادة التى تهد كيانه وتنتهى به الى الضعف والانحلال ، وكانت معارضة الحكومة الصينية نقطة البدء فى كفاح الصين من أجل الإحتفاظ بسيادتها وكيانها الخاص ، ولكنها أدت فى النهاية الى تحرش البريطانيين الصين وقيام حرب تعتبر الوحيدة من نوعها فى تاريخ الحروب كلها ، الا وهى حرب الأفيون التى آشتعلت نيرانها بين الصين وبريطانيا فى دورتين أولاهما بين عامى ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ، وقد انتهت بوضع بريطانيا يدها على جزيرة هنج كنج وأغتصابها من الصين لتصبح قاعدة لهذه التجارة المحرمة فى بحار الشرق الأقصى ، اما الدورة الثانية للحرب فقد وقعت بين عامى ١٨٥٦ ، ١٨٥٨ ، وانتهت باستيلاء بريطانيا على نقط ارتكاز لها على شواطىء الصين كما انتهت بأن فرضت بريطانيا على الحكومة الصينية أن تقبل تجارة الأفيون فى بلادها نظير فرض ضريبة على أستيراد تلك المادة الخطيرة ، والحق أن حرب الأفيون هذه تعتبر نقطة سوداء فى تاريخ التوسع والسيطرة من أجل تحقيق مصالح مادية على حساب الاعتبارات الانسانية التى تمس كيان الشعوب وحياتها ، ويسلم بذلك غير واحد من الكتاب والمؤرخين البريطانيين الذين يأخذون على بلادهم هذه الخطيئة التى لا تغتفر والتى تغاضى فيها ساسة بريطانيا وتجارها فى القرن التاسع عشر عن أبسط مبادىء الانسانية ومثلها الأخلاقية فسطروا فى سجل التوسع البريطانى سطورا سوداء لا يمكن أن يمحوها الزمن .

وقد استمرت الحال على ما هى عليه ، واستمر تجار بريطانيا يفرضون سلعتهم المحرمة على شعب الصين حتى أوائل هذا القرن عندما لاحت مبادىء النهضة القومية فى بلاد الصين ، وكان الضمير الانسانى فى أوروبا قد بدأ يستيقظ بعض الشىء ، كما ان مصالح بريطانيا ذاتها فى بلاد الصين قد أخذت تتسع الى أبعد من نطاق تجارة الأفيون ، وأصبحت لبريطانيا أوجه أخرى للنشاط التجارى مع الصين تدر عليها أرباحا تزيد على ما تدره تجارة

الأفيون ، فضلا عن أنه قد ظهرت فى مطلع القرن العشرين أعتبارات جديدة فى المجال الدولى تجعل من العسير على حكومة كحكومة بريطانيا أن تبرر موقفها من تجارة الأفيون مع بلاد الصين ، وفى هذه الظروف كلها وجدت حكومة الصين الجو مهيا أمامها والظروف مواتية لها ، فأصدرت فى عام ١٩٠٦ مرسوما يقضى بحظر تعاطى الأفيون أو زراعته أو الاتجار فيه .

ومنذ ذلك الحين بدأت حكومة الصين تكافح كفاحا منتظما فى سبيل القضاء على آفة لم يكن شعب الصين يعرفها على الاطلاق قبل ظهور التجار الاوربيين على أرض الصين وقبل أن يتبناها هناك تجار بريطانيا من أجل تحقيق منافعهم المادية ، ولقد استغرقت هذه الجهود من الصين قرابة نصف قرن لكى تقضى على تجارة المخدرات وتعاطيها فى البلاد قضاء مبرما ناجحا.

هذه قصة من قصص الكفاح من أجل تهيئة أسباب التحرر لشعب كبير هو شعب الصين .

فهرس

صفحة

صفحة

انتظـــروا

الكتاب القـــادم

مـــن

مختارات الإذاعة



الثمن ٧ ص

دار الجمهورية للطباعة